

== الجواب الكافي ==
عن سؤال الحائرين والفرضيين

هل
الإنسان مُسَيَّرٌ
أو مُخَيَّرٌ؟

مع عرض لقضية الجبر والإختيار

نبيل محمدى

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

الجواب الكافي ..
عن سؤال الحائرين والمفترضين

هل الإنسان مُسَيَّرٌ أو مُخَيَّرٌ؟

مع عرض لقضية الجبر والإختيار

تأليف
نبيل حمدي

حقوق الطبع محفوظة
(١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م)
الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتماد مشيخة علماء الإسكندرية

بعد مراجعة أصل هذا الكتاب فلا مانع لدى المشيخة من طبع الكتاب
ونشره على أوسع نطاق في العالم الإسلامي ليتم النفع به .
والله المستعان ،

محمد محمد أبو خوات
مدير المنطقة الأزهرية التعليمية
وشيخ علماء الإسكندرية
مايو ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

روجع هذا البحث وأرجو لصاحبه حسن القصد لينال جزيل الثواب ،
وأرجو لمن يطالعه أن ينفعه الله به ، وأن يهديه إلى صادق الإيمان والتسليم .
والله المستعان ،

أحمد المحلاوى

رئيس إتحاد علماء المساجد

بالإسكندرية

إبريل ١٩٧٨ م

كلمة إتحاد أئمة المساجد بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد الطليعة الأولى محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد ...

فإني إذ أقدم للقراء هذا الباحث المسلم وهو يعرض باكورة إنتاجه ، أقدمه وفي ذهني صورة لشباب السلف الصالح الذين كانوا يطبقون العقيدة الإسلامية منهاجاً وسلوكاً .

والكتاب الذي بين أيدينا (هل الإنسان مسير أو مخير ؟) يتكلم عن فضية من أخطر قضايا الفكر ، ولقد شغلت الفكر المعاصر وقتاً غير قصير من الزمان ، تكلمت فيها الفرق الكلامية على اختلاف مذاهبها في الفكر ، وأثار ذلك الخلاف جدلاً طويلاً . وفي الحقيقة فإن أغلب الفرق قد سلكت في بحث هذه القضية مسلكاً غريباً عن الإسلام فضاع منها طريق الوصول إلى الهدف الذي أرادت أن تتحمله .

أما مؤلف هذا الكتاب ، فلقد سلك في كتابه مسلكاً يقوم على كتاب الله وسنة رسول الله ، وهذا هو المنهج الذي يجب أن يسلكه كل باحث يتصدى للكتابة عن الإسلام ، فكتاب الله عز وجل قد حوى كل ما يطلبه المسلم من عقيدة ، وكذلك السنة الشارحة المبينة ، صلوات الله على صاحبها أفضل صلاة وتسليم .

ولذلك فإننا لسنا بحاجة إلى فكر فلسفي وافد للاستدلال على ما يحتاجه المسلم في عقيدته فكل منهج بشري غريب عن القواعد والأصول الإسلامية لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية ، فالتزام المنهج في الإسلام ضروري للبحث في القضايا الإسلامية التي تمس جوهر العقيدة .

ومؤلفنا الذى أقدم له هو من هذا الطراز ، عنده وفرة فى النصوص القرآنية ونصوص السنة المطهرة بالإضافة إلى ما يحسه فى وجدانه وأعماقه ، ولهذا السبب تراه يستشهد لك بالعديد من النصوص المقنعة ، لقد عايش المؤلف هذا البحث بفكرٍ وواع ، وعقل يقظ ، وقلب متدبر .

ولقد عقدت اللجنة التى شكلها إتحاد أئمة المساجد جلسات مع المؤلف ناقشته فى كل جزئية من جزئيات هذا البحث ، وانتهت اللجنة إلى إجازته وتقديمه للقراء كنموذج للشباب حين يتصل ببيوت الله .

هذا ، وإنى آمل أن يتبع المؤلف هذا البحث ببحوث أخرى محاولا وضع لبنات على طريق النور ، طريق القرآن ، طريق الإسلام .

والله أسأل أن يوفق شباب الإسلام إلى ما فيه خير الإسلام إنه حسبي وعليه التكلان .

د / محمد محمود شحاته

وكيل إتحاد أئمة المساجد

بالإسكندرية

إبريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم ألهمنا الصواب فى القول ، والرشد فى العمل ، والإخلاص فى النية ، والصدق فى العزيمة ، والثبات على العقيدة فإنك أفضل مسئول وأكرم مأمول .

وبعد فهذا الكتاب يعطى تصوراً أرجو أن يكون حقيقياً للإجابة عن السؤال الهام المحير الذى يتردد على أذهان كثير من الناس وهو : (هل الانسان مسير أو مخير ؟) ، ويحيب بأسلوب شيق وعبارات بسيطة واضحة عن الخواطر والتساؤلات المتعلقة بذلك الموضوع والتى تشغل أذهان معظم الشباب على وجه الخصوص فى محاولتهم للتوصل إلى إجابات وافية مقنعة تشبع رغباتهم فى الوصول إلى الحقيقة .

ولقد حرصت على أن أتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل لا يخالطه الملل وأن يكون أسلوبى سهلاً يسيراً يعتمد على الإقناع الكامل مستنداً فى ذلك إلى عديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تعمدت الإكثار منها لخدمة الموضوع وتحقيق الإقناع الكامل عن طريق التعرض للمعانى الدفينة الخفية فى تلك الآيات والأحاديث التى يجد فيها معظم الناس كثيراً من التناقضات والغموض .

وقضية الجبر والاختيار تأتى فى المقام الثالث من حيث خطورتها وأهميتها بعد قضية الذات الإلهية وقضية كمال الصفات الإلهية لأنها تتعلق بصلب الدين وكثيراً ما حامت حولها الشكوك ونشأت عنها تطاحنات وتعبص فى الآراء نتج عنها مذاهب عديدة كالمعتزلة وأهل السنة كل مذهب يدعو إلى أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الذين يطرحون عديداً من الأسئلة التي تتعلق بقضية الجبر والإختيار تنم عن الريبة والشك هم صنفان : صنف توفر له حسن النية يبغى الوصول إلى إجابات وافية للأسئلة والخواطر الملحة التي تجول بخاطره ، وصنف فسدت نواياه لا يبغى الحقيقة وإنما نشر السموم وإحاطة القضية بهالة من الشكوك طعناً في الأديان عامة وفي الإسلام خاصة .

فمن الناس من يتساءل : (إذا كانت كل الأمور تسير وفقاً لمشئئة الله وأن الله عز وجل أراد لها أن تحدث فما ذنبنا نحن ولماذا يحاسبنا الله عما ارتكبناه من خطايا وآثام ؟) .

ومنهم من يتساءل : (إذا كان الله عز وجل يعلم مصيرنا وما سيحدث لنا في الدنيا وفي الآخرة ، وهل نحن من أصحاب الجنة أو من أصحاب النار فلماذا يتركنا في الدنيا حيث التعب والمشقة ؟ وإذا كانت كل الأمور يبدى الله عز وجل فلماذا يجعلنا نخطيء ؟) .

فمن أجل هذه التساؤلات الضالة والآراء المسمومة نجد هؤلاء الناس لا يقدمون ولا يقبلون على فعل الخيرات زاعمين أن الله عز وجل إنما أراد لهم أن يكونوا بهذا الوضع وبهذا الشقاء ، فلا جدوى إذن من التمسك بالدين والتسابق في فعل الخيرات ، وحجتهم في ذلك قوله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ٣١ : المذثر

يفسرون هذه الآية وما يشابهها من الآيات الأخريات تفسيراً سطحياً بعيداً كل البعد عن المعنى والتفسير السليم ، وهذه هي عادتهم دائماً ينتقون من القرآن الكريم ما يعتقدون بأنه يؤيد آراءهم ويتركون صريح الآيات .

والغالبية العظمى من الناس بطبيعتها لا تعترف بأخطائها ولكنها تلتمس الحجة والمبررات لكي ترفع عن عاتقها هذه الخطايا وتظاهرها بأنها صاحبة الحق ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ ٥٤ : الكهف .

إذا كان هؤلاء الناس لا يتمسكون بالدين ولا يسيرون في دأب الصالحين ، وحجتهم في ذلك أن الله إنما أراد لهم أن يكونوا كذلك يضل من يشاء ويهدي من

يشاء ، وأن الإنسان لا ينال أكثر من نصيبه ، فلماذا إذن لا يتصرفون نفس هذه التصرفات في جمع المال أو العلم أو الجاه أو النفوذ ، فمن هؤلاء الناس من يتسابقون في طلب العلم والاستزادة منه وفي جمع المال بشتى الطرق ، وفي الوصول إلى منصب ومركز مرموق ، وشعارهم في هذا لكل مجتهد نصيب ، وأنهم يستطيعون أن يصلوا إلى ذلك كله بالكفاح والعرق والجهد ! ؟؟

لماذا لا يطبقون هذه الآراء في نظرتهم إلى الدين ؟ فما يتعلق بالدين يعتبرونه من فعل القدر ، وما يتعلق بالدنيا يعتبرونه من فعلهم هم ولا دخل للقدر فيه .

والحقيقة أن الإنسان له دخل في أمور الدنيا والدين ، وأيضاً القدر له دخل في أمور الدين والدنيا ولكن علاقة تدخل الإنسان وتدخل القدر هي علاقة لا تناقض فيها ولا يتسبب عنها إجبار للإنسان في أن يفعل خيراً أو شراً .

إذا نظرنا إلى آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه يوجد نوعين من الآيات : آيات محكمات ، وآيات متشابهات .

الآيات المحكمات :

هي الآيات التي لا يختلف عليها إثنان في المعنى فمعناها ظاهر وواضح للجميع كمثل قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة المسماة بسورة الإخلاص جميعها محكمات وتشير إلى أن الله أحد في ذاته ، وواحد لا شريك له ، وأنه هو الصمد ، وليس له نظير في صفاته .

أما الآيات المتشابهات :

فهى الآيات التي تحمل أكثر من معنى . كمثل قوله تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ التحريم — ١٢ . في حديثه تعالى عن عيسى عليه السلام وأمه مريم ، يفسرها كل إنسان حسب أهوائه الشخصية ويتمسك بها المتشككون وضعاف الإيمان ليقيموا الحجة على صحة اعتقاداتهم الحاططة ويتركون ما عداها من الآيات المحكمات بينما المعانى الحقيقية للآيات المتشابهات

هي تماما ما نصت عليه الآيات المحكمات من معاني فهي المرجع لكل الالتباسات وفي هذا يقول تعالى :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ آل عمران — ٧

ومن الآيات المتشابهات فى موضوعنا الذى نحن بصددده (الجبر والإختيار) قوله تعالى :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ ٣١ — المدثر .

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ — التكوير .

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ١٣ — السجدة .

هذه الآيات تشعر الانسان الذى لا يتدبر جيداً معانى القرآن الكريم ولا يتعرف على أصول دينه ومنهجه ، تشعره بنوع من الشك والخواطر الباطلة بأنه ربما يكون هناك ظلم على الإنسان وأن الشقى لا دخل له فى شقائه وإنما قدر عليه أن يكون كذلك .

أما الآيات المحكمات التى تتناول قضية الجبر والإختيار والتى تعتبر المرجع والخلاصة لهذه الآيات المتشابهات والتى توفر على الإنسان عناء المشقة فى إيجاد معنى صحيح للآيات المتشابهات وتلغى الأقاويل والتفاسير الباطلة فهي قوله تعالى :

﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ٤٦ — فصلت

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ٤٤ — يونس .

﴿ فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ٥٤ — يس

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ٤٧ — الأنبياء .

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ ٤٩ — الكهف .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ٧ ، ٨ —
الزلزلة .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَظْلُومُونَ ﴾ ١٧٧ — هود
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ١١ — الرعد .

وطالما أن كلام الله صدق وأنه هو الحق وأن كلامه حق وأن القرآن هو كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأن الله هو المقسط العادل . فلماذا إذن لا نقنع بهذه الآية القرآنية المحكمة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ٥١ الأنفال ، ونجعلها نصب أعيننا ولا يهمننا بعد ذلك إن كان الانسان مسيراً أم مخيراً طالما أنه لا ظلم عليه وأنه سيأخذ حقه كاملاً ونبعد عن أى تفسير وهمى حاطيء للآيات المتشابهات ؟ .

ومع ذلك فلأن كثيراً من الناس لا يقنعون بذلك ولا يريدون بالآيات المتشابهات بديلاً ويرون أنها تناقض في المعنى الآيات المحكمات فسوف أحاول بمشيئة الله توضيح معاني هذه الآيات وتوضيح مدى انسجامها في المعنى وإعطاء صورة أرجو أن تكون واضحة لقضية الجبر والإختيار . وحرصاً على سهولة الإلمام بذلك الموضوع فقد وضعت في آخر هذا الكتاب تلخيصاً شاملاً للجوانب الموضوع الرئيسية حتى يسهل على القارئ بعد فراغه من القراءة الإحاطة بالأفكار العديدة المتشعبة والنقاط الهامة التي تعالج هذه القضية .

ولا يفوتني أن أتقدم بعظيم الشكر والإمتنان لفضيلة الشيخ محمد أبو خوات شيخ علماء الإسكندرية ، وفضيلة الشيخ أحمد المحلاوى رئيس إتحاد علماء المساجد بالإسكندرية ، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد محمود شحاته وكيل الإتحاد ، وفضيلة الشيخ عبد رب النبي توفيق ، على ما بذلوه من جهد مشكور في مراجعة هذا البحث ...

والله أسأل أن يوفقنا وينفعنا به ويرزقنا الإخلاص في العمل ، ويثبت الإيمان في قلوبنا إيماناً خالصاً لا يخالطه شك أو ارتياب إنه سميع الدعاء .

نبيل حمدي

الباب الأول

المبحث الأول

تحليل لمعاني الآيات المتشابهات

نلاحظ في الآيات المتشابهات أن صفة المشيئة أو الإرادة تتكرر وتتعدد فيها مثل قوله تعالى :

- ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ٣١ — المدثر
- ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ — التكويد .
- ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ١٣ — السجدة .
- ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ٩٩ — يونس .

وهناك فرق في المعنى بين يشاء أو يريد وبين يحب أو يرضى فالمشيئة معناها الإرادة بينما الحب معناه الرضا وكلا المعنيين مختلف تماماً عن الآخر فالإرادة والمشيئة ليستا هما الحب والرضا فليس معنى أن الله يريد شيئاً أنه حتماً يحبه أو يرضى عنه ولكنه يريد به الحكمة باللغة فالله يريد الخير والشر على السواء ولكنه يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا بالخير فقط .

والدليل على أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد الخير قوله تعالى :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) .

ومعنى من يشاء أى من يريد

أما الأدلة على أنه تعالى يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا بالخير فقط قوله تعالى :

- ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ٢٢٢ — البقرة .
- ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ٥٨ — الأنفال .
- ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ٣١ — آل عمران

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ١٨ — الفتح
 ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٤ —
 الصف .

فالله سبحانه وتعالى يريد الخير والشر ويأذن للشر بالحدوث لحكمة بالغة ولكنه
 يحب الخير فقط ويرضى به ويكره الشر ويذم أهله .

وما ينطبق على الحب والرضا ينطبق أيضاً على الأمر الإلهى فالله لا يأمر إلا بالخير
 ولا ينهى إلا عن الشر يقول تعالى :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
 والبغى ﴾ ٩٠ — النحل .

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ٢٨ —
 الأعراف .

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا
 بالعدل ﴾ ٥٨ — النساء .

مما سبق يتضح لنا أن مجال الإرادة والمشيئة هو الخير والشر معا أما مجال الحب
 والرضا والأمر فهو الخير وحده .

المبحث الثاني

الحكمة في حدوث الشر

ويأتى هنا السؤال الذى يخطر على الأذهان وهو : لماذا يريد الله الشر كما يريد الخير ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن الله الذى لا إله سواه الملك الحق المبين من الواجب أن يتصف بصفات الكمال المطلق التى تتفق ومقتضيات الإلوهية وأحقية الملك .

فمقتضيات الألوهية تعنى إتصافه بأسمائه الحسنى أما أحقيته بالملك كملك حق مبين فهى تعنى إتصافه بما يحقق له الإنفراد بهذه الصفة دون سائر ملوك الأرض الذين يملكون مالا يستحقون ويعيشون كملوك مزيفين على هامش الملك الذى لا يحق إلا لله وحده .

وأحقية الملك لله عز وجل ليست فقط لأنه خالقه ولكنها أيضاً بسبب إحاطته عز وجل بهذا الملك العظيم إحاطة كاملة علماً وقدره وسيطرة ومشئته وإرادته .

الله جل شأنه ملك حق مبين لثلاثة أسباب متكاملة وهى أنه خالق لما يملك وعليم بأحوال ما يملك وبأساط مشيئته وجبروته وسلطانه على أرجاء ما يملك .

فهو خالق وعليم وقادر ولهذا يستحق أن ينفرد بأحقية للملك دون غيره من ملوك الأرض .

وإذا نظرنا آيات القرآن الكريم وجدناها مليئة بهذه المعانى الواضحة حيث يقول تعالى .

﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً ﴾ ١٢ — الطلاق .

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال دبة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ ٦١ — يونس .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ٥٩ — الأنعام .

﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ ١٦ — لقمان .

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ ٧ — المجادلة .

إن علم الله ليس وحده الذى أحاط بهذا الكون ولكن قدرته ومشيعته أيضاً قد أحاطتا بهذا الكون وسيطرتا على هذا الوجود بأكمله بحيث إنه ما من شيء يحدث في هذا الكون قليل أو كثير خيراً كان أم شراً إلا بإذن من الله وإرادته ومشيعته منه سبحانه وإلا ما حدث فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فما من شيء يحدث في ملك الله إلا بعد أن يأخذ الإذن والمشيعته من الله فلا بد أولاً من العرض على الله ثم المشيئة لها بالحدوث حتى تحدث ولذلك يقول تعالى :

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ٢٣ — الكهف .
﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ — التكاوير .

إذن فالله يريد للشر أن يحدث مع بغضه له كما يريد للخير أن يحدث مع حبه له .
والشر الذى نعينه الآن ليس الذى يصاب به الإنسان بفعل القدر الاجبارى كاللأزل والصواعق والمصائب والنكبات وإنما الشر الذى يرتكبه الإنسان في حق أخيه الإنسان كسرقة أو قتله أو الإعتداء عليه بالإضرار أو الفحش وهو أيضاً الشر الذى يرتكبه في حق نفسه بإسرافه في الشهوات والمحرمات وإجتنابه طاعة الله .

إن حكمته عز وجل في حدوث بعض التماذج من الشر كثيرة ومتعددة نذكر منها :

أولاً : تمييز الخبيث من الطيب فلو أن الله لم يأذن للشر بأن يحدث في ملكه لوحدنا أن السرقة والقتل وغيرها من الفواحش لن تحدث مما يجعل الناس متساوين في

ترك المنكرات وما أمكن التفرقه بين الخبيث والطيب والصالح والطالح ولا أقيمت الحجة على المذهب يوم القيامة فالإنسان بطبيعته مجادل ولا يرضى أن ينسب إليه الفسوق من غير دليل أو برهان يقول تعالى : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ ٣٧ — الأنفال .

من أجل ذلك فإن الله عز وجل يقيم على عبده الحجة البالغة فيشهد عليه رفاقه وقرناء السوء وكل من اطلع على معصيته ويشهد عليه ملائكته الكرام الكتب يقول تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ١٧ ، ١٨ — ق .

ويقول تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ ١٠ ، ١١ ، ١٢ — الإنفطار ، ليس هذا فحسب بل إن الله عز وجل يشهد عليه الأرض التي ارتكبت عليها المعصية قال رسول الله ﷺ لأصحابه في معنى قوله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ﴾ ٤ ، ٥ — الزلزلة ، قال « أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا ، كذا ، كذا ، فهذه أخبارها » أخرجه الترمذی وقال حسن صحيح . والله عز وجل فوق هؤلاء جميعاً مطلع على عبده يسمعه في السر والجهر ويراه ويراقبه ويعلم ظاهر عمله وباطنه وما يدور في خُلده وما يخفيه في صدره وما يضممه في قلبه وما ينويه بعمله لا يعلم ذلك إلا الله لأنه عليم بذات الصدور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ١٤ — الملك .

وكثير من الناس يجادلون بالباطل يقول تعالى ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ ٥٤ — الكهف ، فإذا أنكر العبد الفاجر ما اقترفه من الإثم ولم يعترف بشهادة أحد غيره فإن الله عز وجل يُخرج سريره المكنونة فتظهر وتتكشف وتتعري ويفضحه على رؤوس الأشهاد يقول تعالى ﴿ يوم تُبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ﴾ ٩ ، ١٠ — الطارق ، ثم يختم على فيه ويأمر جوارحه فتنتطق يقول تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٦٥ — يس .

ويقول تعالى ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ٢٤ — النور .

ويقول تعالى ﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ ٢٠ ، ٢١ — فصلت ، وفي معنى هذه الآيات الكريمة يقول رسول الله ﷺ عن مجادلة العبد لربه يوم القيامة « يقول العبد : رب ألم تجزني من الظلم ؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز علي إلا شاهدا من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتيين شهود فيختم على فيه ويقال لذكرانه أنطقني فتتطرق بعمله ثم يخلى بيه وبين الكلام فيقول بعداً لكُرسٍ وسحقاً فعنكُرسٍ كنت أناضل » أخرجه الحافظ البزار ورواه مسلم والنسائي بنحوه .

فحكمة الله أن يتصارع الخير مع الشر حتى إذا كان يوم القيامة يقال للعبد : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ١٤ الإسراء .

ثانيا : إن الله عز وجل قد يسمح للشر أن يحدث لكي ينتقم من المجنى عليه الذي لحقه الضرر . عن طريق الجاني فقد يكون المجنى عليه رجلاً مجرمًا في حق العباد وفي حق الله فربما يكون ظالماً عانى من ظلمه أناس كثيرون وقد يكون مداوماً على المعاصي والذنوب مضيقاً لحقوق الله .

وإذا كان الإنسان متصفاً بهذه الصفات سلط الله عليه من يذيقه سوء العذاب . ومن أجل ذلك نتوجه جميعاً إلى الله عز وجل قائلين : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا » .

وكلنا نعلم أن الله عز وجل قد يعجل للظالم العقوبة في حياته قبل مماته فيسلط عليه من يظلمه ويصيبه بالأذى والضرر هذا فضلاً عما ينتظره في الآخرة من عذاب الله .

يقول النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » أخرجه الشيخان .

وقال ﷺ في حديث آخر (ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حين يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين » رواه أحمد والترمذي .

وقال رسول الله ﷺ « اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » متفق عليه ، وقال « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » رواه مسلم

وقال تعالى في حديثه القدسي « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » رواه مسلم . وبين الله عز وجل انتقامه من أولئك الظالمين بسبب ظلمهم فيقول في كتابه العزيز :

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد﴾ ١٠٢ — هود

من هذا يتبين أن الله عز وجل قد يأذن للشر أن يصاب به المجنى عليه عن طريق الجاني إنتقاماً من المجنى عليه بسبب ظلمه للناس وتهاونه في حق الله .

ثالثاً : إن ما يراه الناس شراً قد يكون خيراً لهم وإن ما يرونه خيراً قد يكون شراً لهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ١٢٦ — البقرة

فقد يأذن الله للشر أن يحدث ويكون في حدوثه الخير كل الخير أو دفعاً لشر أكبر فقد يسرق المال ولو بقى المال فرما أفسد صاحبه وأبعده عن طريق الله ، وقد يقتل الابن ولو عاش لأصبح عاقاً لوالديه ولأرهبهما طغيانا وكفراً ، وقد يتم الطلاق ولو استمر الزواج لأفسد على الزوج أو الزوجة أو الإثنين معا دنياهما وآخرتهما ألم يقل الله : ﴿يأأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ ١٤ التغابن .

وقد يُقتل ملك عادل ويكون خليفته أرجح منه عقلاً وأكثر منه عدلاً ، وقد يُقتل مظلوم قد استقامت حياته ولو ترك لفتنته الدنيا وما استقامت حياته ولكن من أهل النار ، وقد يذنب العبد ولكن ذنوبه قد تكون دافعاً له إلى التوبة والاستقامة على الطريق الخير أكثر من استقامته قبل اقترافه الذنوب .

كل هذه المعاني نجدها في الأقوال المأثورة « مصائب قوم عند قوم فوائد » ، « رب ضارة نافعة » . والشر والخير يساهمان معاً في حفظ توازن الحياة الدنيا ولا غنى

لأحدهما عن الآخر ولا غنى للدنيا عنهما فهما للدنيا كالجنّاحين للطائر وعلى قدر ما تم انجازه من الخير أو الشر تتحدد مصائر كثير من الناس ويتم تدوين وتأسيس تاريخ وحضارات شعوب وأمم بأكملها .

رابعاً : إن الشر الذى يأذن الله عز وجل بأن يصاب به المؤمن يجزيه عنه خير الجزاء وفى هذا يقول النبى عليه الصلاة والسلام « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » متفق عليه ، ويقول عليه الصلاة والسلام « ما من مسلم يصيبه أذى شوكه فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها » متفق عليه ، ويختلف أجر المسلم تبعاً لشدّة الشر الذى يصاب به وصبره عليه ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

خامساً : إن الشر الذى يصاب به العباد قد يكون إمتحاناً لهم لتحديد موقفهم من الإيمان برهم فمنهم الصادقون ومنهم الكاذبون وامتحاناً لعزيمتهم وصبرهم على الشدائد يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ الأنبياء
﴿ ألم : أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ — ٣ : العنكبوت

سادساً : إن الخير ذاته الذى يحبه الله ويرضى عنه ويأمر به لن يوجد ولن تستبين معالمة إلا إذا وجد جانب الشر فلولا الكفر والعدوان ما وجد الجهاد ولولا الفساد ما وجد الإصلاح ولولا الجهل ما وجد العلم ولولا الرق ما وجد العتق ولولا الظلم ما وجد العدل ولولا القبح ما وجد الجمال ولولا الجمال ولولا الفقر ما وجد الإحسان ولولا الذنوب ما وجدت التوبة .

ولذلك شاءت حكمة الله أن يأذن للشر بالحدوث حتى يجد الخير مجالا لممارسة رسالته .

سابعاً : إن الله عز وجل له أسماء وصفات يجب أن تظهر آثارها في خلقه فإن ذلك من لوازم كماله ، فالله غفور يحب المغفرة وإن كره معاصي العباد . ألم يقل النبي ﷺ « والذي نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر الله لهم » رواه مسلم ، وفي رواية أخرى لمسلم « لولا أنكم تذبون لخلق الله خلقاً يذبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

والله ستار يحب الستر وإن كره الفواحش التي يستر عليها عبده ، والله عفو يحب العفو وإن كره الذنوب التي يعفو عنها ، والله تواب يحب التوبة وإن كره ما اقترفه العبد من الآثام التي تستحق التوبة .

والله يحب لعبيده أن يتصفوا ببعض صفاته ، فالله كريم يحب الكرماء ولن يكونوا كذلك إلا إذا أفتتنوا بالبخلاء ، والله عليم يحب العلماء ولن يكونوا كذلك إلا إذا قاوموا الجهلاء ، والله صادق يحب الصادقين ولن يكونوا كذلك إلا إذا امتحنوا بالكذابين ، والله مقسط يحب المقسطين ولن يكونوا كذلك إلا إذا ناهضوا الظالمين ، والله بر يحب الأبرار ولن يكونوا كذلك حتى يعتزلوا الفجار ، والله رحيم يحب الرحماء ولن يكونوا كذلك حتى يتجنبوا الغلظة قساة القلوب .

من أجل ذلك كان لابد للخير والشر أن يسيرا جنباً إلى جنب على طريق الحياة وأن يتصارعا حتى تقوم الساعة والناس على ما هم عليه صنفان : منهم من يعمل الخير ، ومنهم من يعمل الشر ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

مما سبق تبين لنا الحكمة التي من أجلها يأذن الله تبارك وتعالى للشر الذي يرتكبه الإنسان في حق أخيه الإنسان أن يحدث في ملكه « وما الله يريد ظملاً للعباد » .

المبحث الثالث

متى يأذن الله للشر أن يحدث ؟

قضت ستة الله تعالى أنه لا يأذن للشر أن يحدث إلا بعد أن يعزم صاحبه في علم الله السابق على فعل هذا الشر بمحض إرادته ويعد نفسه لذلك ويشرع في هذا الفعل الشرير بمحض إرادته سواء أكان هذا الفعل سرقة أو قتلاً أو فحشاً ولا يتبقى بعد ذلك إلا أن يأذن الله لهذا الفعل أن يحدث في ملكه ، فالله هنا لم يظلمه ولكنه هو الذى ظلم نفسه ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إِنْ أَفْضَى إِلَى أَنْ يَفْضَى إِلَيْهِمْ يَأْذِنُ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا يَشَاءُونَ ﴾ ، ٤٤ —

يونس

قد يحدث أن يسير شخصان في الطريق ويدخل أحدهما المسجد بينما يدخل الآخر الملهى الليلي !! فهل أجبر الله أحداً منهما على أن يسلك ذلك المسلك ؟؟ .

لا والله إن الله لم يجبر أحداً منهما على ذلك ولكنه اطلع على ضمائرهما فعلم أن أحدهما يريد أن يدخل المسجد فيسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا في ملكه فحدث ، واطلع الله أيضاً على ضمير الآخر فعلم بأنه عاقد العزم بل ومصمم على أن يدخل الملهى الليلي فيسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا في ملكه فحدث على كره ومقت وغضب من الله . يقول تعالى موضحاً هذه المعاني :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيَرِهِ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيَرِهِ لِلْعُسْرَى ﴾ ٥ — ١٠ الليل .

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومةً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلاً ثمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ ١٨ — ٢٠ : الإسراء .

وهناك نوعان من العصاة : صنف قد اعترف بذنبه ، وكلما اقترف إثماً أناب إلى ربه فاستنارت نفسه ورق قلبه وانقشع ما به من الظلمات وكان قريباً من رحمة الله وغفرانه . وصنف آخر أصرَّ على عصيانه وتكبر ولم يعترف بخطيئته وجحد نعمة ربه ولم يلتمس عند الله العفو والصفح والمغفرة ، وزين له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فزادته ذنوبه جحوداً واسود قلبه ثماً ولم يُترك فيه قيس من النور أو شعاع من أمل الهداية والرجوع إلى الله ومات ضميره فلم يعد يشعر بالندم على ما ارتكبه من الضلال والفساد فقطع بذلك كل السبل التي توصله بخالقه وفشلت كل المحاولات البشرية لإصلاحه ولم يعد يرجى منه مثقال ذرة من خير . وهذا الصنف من الناس لم يعد عاصياً فحسب بل أصبح زعيماً من زعماء الكفر والضلال وجندياً من جنود إبليس وداعية من دعاة النار .

هذا الصنف من الناس ليس عجيباً أن يحرمهم الله من مغفرته ويقول لنبيه عليه الصلاة والسلام :

﴿ سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ٦ — المنافقون .

ولم يظلمهم الله حينما لعنهم وأبقى على ما في قلوبهم إلى يوم يلقونه مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ ٦ ، ٧ — البقرة .

وقوله تعالى :

﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلقوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ ٧٧ — التوبة .

والله تعالى علم مسبقاً أن قوم نوح صغيروهم وكبروهم فريق منهم ينتمون وفريق منهم سينتمون إلى هذا الصنف الأخير من العصاة ولن تلين قلوبهم أبداً بالإيمان ، فقال لنبيه نوح عليه السلام :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ٣٦ — هود .

ثم ما لبث أن أهلكهم بالطوفان الأعظم ، فلم يترك صغيرهم ولا كبيرهم .
والله عز وجل لم يظلم من أهلكهم ولم يظلم من حرّمهم من مغفرته ولكنهم هم
الذين ظلموا أنفسهم ، فانظروا إلى قوله تعالى :

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ١١٧ — هود ، وسنته جل
شأنه في إهلاك أهل القرى تتضح في قوله تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميراً ﴾ ١٦ — الإسراء .

ويمكننا من هذه الآية الكريمة الاستدلال على أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد
الخير إلا أن إرادته الشر لا تتحقق إلا بعد أن يأمر أهل القرى من اعتادوا الترف
والفساد أن يمتثلوا لطاعته وينتهوا عن نواهيهم ، فلما تمردوا على طاعته وأصروا على
ارتكاب ما نهاهم عنه حقت عليهم كلمة العذاب وحل عليهم الخراب والدمار .

وهذا الصنف من العصاة الذين مردوا على الكفر فلا يرضون به بديلاً وتحصنوا
ضد الإيمان فاستحال على نور الإيمان أن يصل إلى قلوبهم واستحقوا سخط الله
وعقابه بعد فشلت كل المحاولات البشرية في هدايتهم وتقديم النصيحة لهم ، فلا عجب
بعد ذلك أن يزيدهم الله مرضاً إلى مرضهم وضلالاً إلى ضلالهم ، ولذلك يقول
تعالى :

﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ ١٠ — البقرة .

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ ٣٤ — غافر .

﴿ فلما زاغوا عن الله آزاغ قلوبهم ﴾ ٥ — الصف .

﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً ﴾ ٧٥ — مريم .

وما يصدق على أهل الضلال يصدق أيضاً على أهل الهدى :

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ ١٧ — محمد .

فإذا عرضت علينا الآية القرآنية :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ ١٢٥ — الأنعام .

لا ينبغي لنا أن نشك في عدالة الله ونعتقد بأن الهداية والضلال صفتين قد أكرم الله بهما عباده جبراً وقهراً بل إننا لو تدبرنا الأمر لوجدنا أن آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضاً ، فمن هم الذين يريد الله أن يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام ؟ . هؤلاء هم الذين قال عنهم الله :

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ .

أى الذين أخذوا بأسباب الهدى وأقبلوا على مرضات الله وطاعته طامعين في الهداية فلم تبخل عليهم عناية الله وقذف الله في قلوبهم الهدى وشرح صدورهم للإسلام .

ومن هم الذين أراد الله أن يضلهم وأضاق صدورهم ؟ .

هؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ الذى يسرف في ارتكاب المعاصي والآثام ، والدافع له إلى ذلك إنكاره ما وعد الله به عباده من البعث والحساب والجنة والنار ، فكانت هذه الريية دافعاً له إلى الإسراف في المحرمات والشهوات دون خوف من رقيب أو أمل في نعيم .

وهؤلاء الذين أضلهم الله وأضاق صدورهم هم أيضاً الظالمون لقوله تعالى : ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ ٢٧ — إبراهيم .

وهم أيضاً الغارقون في الضلال في كل أمورهم وشئونهم وأحوالهم فأمدهم الله في ضلالهم لقوله تعالى :

﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ٧٥ — مريم .

وما لا شك فيه أننا نجد أنفسنا أمام المعنى السليم للآية الكريمة :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ٣١ — المدثر .

فليس معنى « من يشاء » أننا أمام مشيئة عشوائية تلزم أناساً بالضلال وتلزم آخرين بالهداية ، تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً ، ولكن معناها أن الله يضل من يريد بسبب استحقاقه للضلال للأسباب التي ذكرناها ويهدي من يريد بسبب استحقاقه للهداية للأسباب التي ذكرناها أيضاً ، والله لا يحايى بعضاً من خلقه على حساب البعض الآخر وإنما جميعهم أمام الله سواء لا يتفاضلون إلا بمقدار التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ١٣ — الحجرات .

وقد يعود الضمير في لفظ « من يشاء » في الآية الكريمة السابقة إلى الإنسان نفسه ، ويكون معناها أن الله يضل من يريد لنفسه الضلال باتباعه الطرق المؤدية لذلك ، ويهدي من يريد لنفسه الهداية باتباعه الطرق المؤدية لذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وكل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ — الكهف .

وكلا المعنيين على كل حال يعطى البراهين على عدالة الله المطلقة ويرفع عن الإنسان الظلم والإلزام .

من هذا يتبين أن الله عز وجل يترك المبادرة بالنية دائماً لك ثم بعد ذلك يأتي قضاءه فيزيديك مرضاً إذا أضمرت في قلبك المرض ويهديك إذا بادرت في سريرتك بميل إلى الهدى ويصرفك عن الهدى إذا أضمرت في نفسك الكبر والجحود .

إن منطقة الضمير متروكة دائماً لك لتبادر بما تشاء وبعد ذلك ينزل عليك القضاء ويحق عليك القول .

إن فصل الخطاب في هذه المسألة والذي أوجز ما سبق ذكره هو قوله تعالى ﴿ أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ ٢٣ — الجاثية . نعم لقد أضله الله على علم منه سبحانه بأنه مستحق لذلك أنتقاماً منه لأنه أخذ بأسباب المضلالة وأعرض عن أسباب الهداية فكان جزاؤه أن ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، ثم ختمت الآية الكريمة باقرار أن لا أحد يهديه بعد أن أضله الله ، أليست

هذه الخاتمة تتفق تماماً مع المعنى الوارد في قوله تعالى ﴿ومن يضلل الله فما له من
هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ ٣٦ ، ٣٧ —
الزمر .

المبحث الرابع

موقف الجاني والمجنى عليه من قضية الجبر والإختيار

نعود إلى موضوعنا الذى نحن بصدده وهو أن الله عز وجل يريد الشر كما يريد الخير وأن الله وهو الملك الحق المبين لا ينبغي للخير ولا للشر أن يحدثا فى ملكه إلا بعلمه وبمشيئته وموافقته ومن أجل ذلك نجد أن بعض جرائم السرقة والقتل والزنا لا تتم رغم توفر الإصرار والعزم والشروع عند من تهبأ لإرتكاب هذه الجرائم ذلك لأن الله عز وجل لم يرد لهذه الجرائم أن تحدث فى ملكه إما بسبب رحمته بالمجنى عليه أو بسبب رحمته بالجاني نفسه لعله يسير فى دأب الصالحين أو بسبب رحمته بالإثنين معاً أو لأى سبب آخر . وكان لابد لمشيئة الله أن تتدخل بالرفض أو الإيجاب لأن وقوع الشر يترتب عليه ظروف تتحكم فى مصائر الناس وقد تغير من برنامج الحياة بأكمله فالقتل يترتب عليه إنهاء حياة المجنى عليه وغلق سجل أعماله فى الدنيا خيراً كان أم شراً وإقامة الحد على الجاني تقتله أو إلحاق الضرر به ، و الزنا قد يترتب عليه طلاق أو تشرد أو إنحراف فى السلوك الإجتماعى وإقامة الحد على المعتدى أو إلحاق الضرر به ، وكـم ساهمت إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي فى التحكم فى مصائر الناس .

والله عز وجل فعال لما يريد فإذا أذن للشر أن يحدث لم يك ظالماً وإذا لم يرد له أن يحدث كان ذلك من مقتضيات رحمته .

وربما يتساءل بعض الناس إذا كان إرتكاب الجاني لجريمته يترتب عليه إقامة الحد عليه أو إلحاق الضرر به والتحكم فى مصيره فى الحياة الدنيا فما ذنب المجنى عليه أن يتحدد مصيره بما أصابه من جريمة الجاني ؟

ومن الممكن إصاغة السؤال بطريقة أخرى ما ذنب من مات أو قُتل فى ريعان شبابه ولم يدخر قسطاً كبيراً من الأعمال الصالحة وغيره من الناس يعيشون ويعمررون فى هذه الحياة الدنيا ؟ .

للإجابة على هذا السؤال نقول بأن الحياة والممات هي من الأمور القدرية التي اختص الله بها نفسه وهي من حق الإله الخالق وحده ولا ينبغي للمخلوقات أن تتدخل فيها ، فكما أن الإنسان مسير في ولادته فهو أيضاً مسير في مماته وينبغي على الإنسان أن يقبل على طاعة الله ويتجنب معصيته منذ بلوغه الس الذي يستطيع عنده التمييز بين الخير والشر ولا يركن إل طول البقاء فإن الموت يأتي بغته وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح وإذا أصبح فلا ينتظر المساء ، وما أصدق قول النبي ﷺ « فليأخذ الإنسان من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن شبابه قبل هرمه ومن صحته قبل سقمه ومن حياته قبل مماته فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » ويحذرنا الله عز وجل من التسويف في الخيرات فيقول :

﴿ وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ ١٠ ، ١١ المنافقون .

ولو علم الناس أعمارهم ما عمروا الأرض ولا أقاموا الحضارات ولا تزودوا بالأمل ولفسدت معيشتهم في الحياة الدنيا .

ولو علموا أعمارهم لعبدوا الله خوفاً مضطرين غير مخيرين ولضاع عندهم ميزان العقل في أن يختار الهدى أو الضلال .

ولو علم المعمرون أعمارهم لأخروا التوبة ولا عتكف الذين قصرت حياتهم للعبادة ليل نهار ولو تساوت أعمار الناس لسارت الحياة على وتيرة واحدة دون تفسير ولا تبديل . هذا فيما يتعلق بميزان الأعمار في الحياة الدنيا .

أما ما يتعلق بشئون الآخرة فإن طول العمر قد يكون نعمة وقد يكون نقمة وإذا كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله فإن شرهم من طال عمره وساء عمله ، ألم يقل رسول الله ﷺ داعياً ربه « اللهم اجعل الحياة زيادة لى في كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » ؟ رواه مسلم .

وفي رواية للبخارى « اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفى إذا كانت

الوفاء خيراً لى .

وتحديد الآحال ليس ظلماً من الله لأحد من خلقه لأنه بعث إليهم النبيين وأنزل معهم الكتب والرسالات السماوية تأمرهم بالمعروف وتنههم عن المنكر وتحذرهم المعصية وتعرفهم طريقى السعادة والشقاء وتقربهم من الجنة وتبعدهم عن النار . أليس من حق الله بعد ذلك أن يقبض إليه من يشاء من خلقه وقتما شاء طاوياً له صحيفة عمله . سائلاً إياه عما قدم وأخر ؟ .

ولنضرب مثلاً لذلك والله المثل الأعلى أليس من حق المعلم بعد أن يتناول المنهج بالشرح الوافى الدقيق أن يجرى امتحاناً فى هذا المنهج لم يشاء من تلاميذه وقتما شاء ؟ .

المبحث الخامس مصادر الخير

ذكرنا أن الله عز وجل يريد الخير ويريد الشر ولكنه لا يحب إلا الخير فقط ويكره الشر ويذم أهله .

ولكى يبين الله لعباده الخير من الشر ويعرفهم ما يحبه مما يكرهه بعث إليهم الأنبياء والمرسلين بالكتب والأديان السماوية يأمرهم فيها بأن يفعلوا أشياء ويتجنبوا أشياء ستكون هي ميزان الصالح من الفاسد يوم القيامة وسيحاسب على أساسها العبد حتى لا يكون للإنسان حجة ثم تركهم وشأنهم يفعلون وفقاً لما تمليه عليهم عقولهم من خير أو شر بمحض إرادتهم واختيارهم ويأذن هو سبحانه للخير أن يحدث ويأذن للشر أن يحدث أو لا يأذن لهما بالحدث فالأمر مفوض له وسيحاسبهم عليه يوم القيامة ولذلك يقول تعالى :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ ٢٥٦ — البقرة .

﴿ ... أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ٩٩ — يونس .

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ — الكهف .

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ٤١ — الزمر .

وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ٣ الانسان ، لوجدنا أن الله عز وجل قد عرف الإنسان طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر بأن بعث الرسل وأنزل الكتب وابتلاه فجعله سمياً بصير ليستوعب ما كُلف به وليتفهم ما أنزل إليه من ربه وليتدبر آياته فيستضح أمامه طريق الخير من الشر وطريق الهدى من الضلال ثم تركه وشأنه يختار أيهما شاء مستخدماً ما منحه الله من حرية الاختيار وما خلقه فيه من الإرادة والقدرة على الاختيار فإما أن يكون شاكراً لنعمة الله فيسلك سبيل الخير والهدى والطاعة ، وإما أن يكون كافراً

بنعمة الله فيسلك سبيل الشر والضلال والعصيان .

فإذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما أقدم عليه من الأعمال بمحض إرادته واختياره يقول تعالى في الحديث القدسي ﴿ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴾ رواه مسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام « كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها » رواه مسلم .

المبحث السادس طبيعة النفس البشرية

وقد يعترض البعض قائلاً بأن الإنسان قد يفعل الشر بمحض إرادته والخير بمحض إرادته ولكن من الذى خلق للإنسان هذه النفس الشريرة التى قادته إلى فعل الشر بمحض إرادته ، ومن الذى خلق للإنسان هذه النفس الخيرة التى قادته إلى فعل الخير بمحض إرادته ؟

وإننى فى هذا المقام لا أجد أروع من الاستشهاد بهذه الآيات القرآنية فى الرد على هذا السؤال حيث يقول تعالى :

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ ٧ — ١٠ : الشمس .

فإن الله لم يظلم أحداً. ولم يحاب أحداً على حساب أحد وإنما كان عادلاً دائماً فى كل شىء إلى أقصى درجات العدل المطلق حيث أنه خلق لكل نفس جانبى الخير والشر معاً فكل نفس تلهم بالطريقين فى وقت واحد الفجور والتقوى ولها أن تختار ، ولو كانت هناك نفس خيرة تلهم بالتقوى فقط ونفس شريرة تلهم بالفجور فقط لقال تعالى فى الآية الكريمة فجورها أو تقواها بدلا من فجورها وتقواها .

ونفس هذا المعنى نجده فى قوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ١٠ — البلد ، والنجدان هما طريقا الخير والشر ليختار صاحبها ما يراه .

إن نفس الطفل تحتوى على الخير والشر بالمنصفة ولكنها فى صورة كامنة وخامدة لا يشعر بها الطفل نفسه فالطفل لا يفهم معنى الخير ولا معنى الشر وبالتالي فهو لا يفعل خيراً ولا يفعل شراً ولذلك فهو برىء فبراءة الطفولة معناها أن الطفل برىء من الخير وبرىء من الشر .

ولكن سرعان ما يكبر الطفل ويغير أثناء نموه من هذا الميزان فيرفع من جانب الخير

على حساب جانب الشر إن كان خيراً أو يرفع من جانب الشر على حساب جانب الخير إن كان شريراً حسب تمسكه أو عدم تمسكه بهدى الرسالات السماوية وحسب طاعته أو عصيانه لربه وحسب معاملته مع الناس والظروف والبيئة التي نشأ فيها فهو إما أن يرتقى بنفسه إلى الصفات الملائكية حيث الروحانية والشفافية وإما أن يهوى بنفسه إلى الصفات الحيوانية حيث الشهوة والرذيلة وبين هذين النوعين من الصفات درجات متفاوتة من الصلاح أو الفساد .

إذن فالله سبحانه وتعالى لم يظلم الإنسان لأنه أمدّه بقدرٍ متساوٍ من الخير والشر ولكن الإنسان هو الذى ظلم نفسه بعصيانهِ وابتعاده عن الطاعات والوصول بنفسه إلى الخسة والرذيلة . ومن الناس من يتعجب كيف يتساوى الأطفال قبل بلوغهم سن الإدراك فيما يمتلكونه من جانبى الخير والشر وهناك من هو مخرب كثير الحركة وآخر متزن قليل الحركة أينما وضعته في مكان لا يتحرك منه ولا يعث في شيء ؟!

والحقيقة أن عبث الطفولة ليس معناه حتماً الشقاء والضلال كما أن الهدوء ليس معناه حتماً الهداية فقد يصير الطفل العاثر رجلاً هادئ الطبع عاقلاً متزناً متحلياً بصفات الإيمان والخلق الرفيع رقيق المشاعر والوجدان ، وقد يصير الطفل الهادئ رجلاً ماجناً كثير العبث والفساد غليظ القلب لا دين ولا حياة له فالعبرة إذن بحس النية وسلامة القلب وصفاء النفس أما ما يبدو على الأطفال قبل بلوغهم سن الإدراك من الهدوء أو الحركات المتعددة فإن ذلك مرجعه إلى اختلاف الطاقة الحرارية المستولدة عن حركة الجسم ونشاطه بين الأطفال وقد ورد أن الحسن والحسين رضى الله عنهما في مرحلة طفولتهما كانا يلعبان بين يدي رسول الله ﷺ وهو يصلى .

وقال عليه الصلاة والسلام « مثل الخليس الصالح والجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » متفق عليه .
وحتى لا يدعى أحد بأن آباءه هم السبب فيما ارتكبه من ذنوب وآثام يعرض علينا الحق عز وجل هذه الحادثة الغريبة المثيرة حيث يقول تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ ١٧٢ — ١٧٤ : الأعراف .

إن الله تعالى يذكر لنا في هذه الآيات واقعة غريبة يفهم منها أننا كنا في حضرة الله قبل النزول إلى الأرحام « في عالم المثال والملكوت » ربما كأرواح لا أحد يدري . وأن الله أشهدنا على ربوبيته وأخذ منا ميثاقاً بهذا الشهود حتى لا نعود فنكفر ونبرر كفرنا بأننا ضحية الآباء ومن أجل هذه الحادثة فإن كل مولود يولد على الفطرة أى يولد مسلماً ينبض قلبه بوحدانية الله .

علينا إذن في موضوعنا الذى نحن بصددده أن نتق في قوله تعالى :
﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

فمن أصدق من الله حديثاً ؟ تعالى الله عن الظلم علواً كبيراً .

المبحث الثامن

لماذا الدنيا ؟

يقول البعض إذا كان الله قد أحاط بكل شيء علما وعلم تفاصيل حياتنا الدنيا ومصيرنا في الآخرة من قبل أن يخلقنا وعلم من سيدخل الجنة ممن سيدخل النار فلماذا تركنا في الدنيا حيث التعب والمشقة ؟

إن الله تعالى تركنا في الدنيا نتفاعل معها حتى يقيم الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ما قدمت يدانا لكي لا يدعى أحد يوم الحساب بأنه قد ظلم وأنه لو كانت هناك حياة دنيوية لما فعل كل هذه الذنوب والمنكرات فإذا ما جمع الناس يوم الحشر يتناول كل إنسان كتابه وفيه الدليل المادى على ما قدمه في الدنيا من خير أو شر يقول تعالى :

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ،
اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ١٣ ، ١٤ — الإسراء .

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك
أحداً ﴾ ٤٩ — الكهف .

ليس هذا فحسب بل إنه يجعل جوارحهم تشهد عليهم فيما ارتكبوه من معاصي
وأثام حدثت منهم بالفعل في الدنيا حيث يقول تعالى :

﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ،
وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول
مرة وإليه ترجعون ﴾ ٢٠ ، ٢١ — فصلت .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ٢٤ —

خلاصة القول :

إن الإنسان مخير فيما يحاسب عليه يوم القيامة من خير أو شر وما يأتي به من أعمال تجلب له الحسنات أو السيئات ويتحدد بها مصيره إن كان من أهل الجنة أو من أهل النار إذ لا يعقل أن يحاسبه الله على عمل أجبره على تنفيذه إجباراً .

المبحث التاسع الإنسان مخير والكون مسير في عبادتهما لله

انظروا إلى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّبَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَهِنُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ١٨ — الحج .

فهو سبحانه أخبرنا أن الكون بأكمله يسجد له ويعبده ولكنه حينما ذكر الناس أنه يتركها مطلقة ولكنه قال « وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب » .

ألا يدل ذلك على أن الكون بأكمله مسير أما الإنسان فهو مخير فيما يتعلق بالعبادة وغيرها من نواحي الخير والشر ! .

وفي تأكيد معنى إجبار الكون في عبادته للخالق الأعظم يقول تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ٤٤ — الإسراء .

الباب الثاني

المبحث الأول

ما جدوى العمل الصالح والدعاء مع المقدور ؟

يقول بعض الناس إذا كان العمل الصالح والدعاء لا يغيران من المقدور شيئاً فما فائدتهم ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن علم الله الأزلى قد سبق قضاءه وقدره وخلقه للأشياء وذلك لأن علم الله صفة من صفات ذاته إشتق منها إسما من أسمائه وسمى نفسه العليم فكان علم الله قديماً بقدماً الله ودائماً بدوامه وباقياً ببقائه أما القدر فهو أثر من آثار صفات الله ودليل نستدل به على وجود الخالق ولذلك كان القدر إحدى مخلوقاته . ولا يمكن للأثر أن يسبق الذات كما لا يمكن للمخلوق أن يسبق الخالق ولا للموجود أن يسبق الموجد . وتلك الحقيقة هي الركيزة الأولى والدعامة الأساسية التي تقوم عليها قضية الجبر والاختيار ونستدبر عليها في إثبات عدالة الله ونفى الظلم على الإنسان فالله لا يقدر للناس أقدارهم إلا بعلم هو سابق لما قدره لهم وحينما قدر الله لآدم وذريته أن يكونوا خلفاء في الأرض عجب الملائكة وسألوا ربهم عن الحكمة فيما قدره لآدم وذريته من الخلافة في الأرض لعلمهم بما سيكون منهم من الفساد وسفك الدماء فأجابهم الله إجابة وافية مقنعة معجزة في كلمات قلائل قال : (إني أعلم ما لا تعلمون) أى أن علمي قد سبق قدرى فعلمت ما سيكون من آدم وذريته بالغيب قبل أن أقدر لهم الخلافة في الأرض .

مما سبق يمكن القول أن الله عز وجل قد علم موقف عبده من العمل الصالح ومن الدعاء قبل أن يقدر له مصيره وقبل أن يخلقه فجاءت أقدار العباد وفقاً لأعمالهم وأدعيتهم فعلى قدر ما يتقربون به من الله تتحدد أقدارهم ومصائرهم .

علم الله قبل أن يقدر للخلق أقدارهم وقبل أن يخلقهم أن عالماً سينصح رجلين بالعمل الصالح والإقبال على الطاعات وترك المنكرات فأما أحدهما فيستجيب له ويعمل صالحاً وأما الآخر فلن يستجيب له ولن يعمل صالحاً ظناً منه أنه لن ينال أكثر من نصيبه وأن الله أراد له أن يكون بهذا الشقاء فلا جدوى مما يفعل فلن يغير

ذلك مما كتب له شيئاً ، علم الله ذلك بالغيب فقدر للأول الجنة وقدر للآخر النار فجاءت أقدارهما وفقاً لما يعلمه الله عن أعمالهما .

وبالمثل علم الله بالغيب قبل أن يخلق الخلائق ويقدر لهم أقدارهم ومصائرهم أن عبده سيدعوه دعوة مستجابة توفرت لها آدابها وشروطها فقدر له قدراً ومصيراً يتضمنان إستجابة الرب لدعاء العبد فما من عبد يدعو ربه دعوة مستجابة إلا كانت إجابتها ضمن ما قدره الله له فكأن الإنسان يستطيع أن يرسم لنفسه طريق السعادة أو الشقاء وفقاً لما يقوم به من الأعمال وما يتضرع به من الدعوات .

ولو لم يكن للعمل الصالح فائدة لما قال تعالى :

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ريك بظلام للعبيد ﴾ ٤٦ — فصلت .

ولو لم يكن للدعاء فائدة لما قال تعالى :

﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ ٦٠ — غافر .

وقد ساق إلينا القرآن الكريم عديداً من الأدعية على ألسنة الرسل والأنبياء والصالحين تتضمن صلاح الدنيا والآخرة قد استجاب الله لهم جميعاً فجاءت الإجابة ضمن أقدارهم وأقدار من دعواهم أو عليهم .

المبحث الثاني

قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٦ — الصافات

بعض المذاهب استمدت من هذه الآية الكريمة الحجة والدليل الساطع على أن الله عز وجل خلقنا وخلق أعمالنا .

وبرغم إيماني بذلك إلا أنني أرى أن هذه الآية الكريمة لم يقصد بها ذلك المعنى وإنما قصد بها الإشارة إلى مخاطبة إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه بأن يعبدوا الله الذى خلقهم وخلق ما يعملون من الأصنام التى يتخذونها آلهة من دون الله فلا يحل لهم أن يتركوا الخالق ويعبدوا المخلوق الذى يشكلونه ويصنعونه بأيديهم ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فى سياق قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٥ ، ٩٦ — الصافات .

وإذا لجأنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يفسر بعضه بعضاً شارحاً نفس المعنى حيث يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً ﴾ ٣ — الفرقان .

أى أن الله عز وجل خلق تلك المواد التى تتكون منها أجساد الأصنام ثم تولى الكفار تشكيلها وتصنيعها بأيديهم ليجعلوا منها أصناماً تعبد من دون الله .

نعود إلى ذلك الخلاف الحاد الذى نشأ بين مذهبي المعتزلة وأهل السنة حول الخالق الحقيقى للأعمال فقد اعتقدت المعتزلة بأن الإنسان هو الخالق لأعماله لأنه هو المسئول عنها واستدلّت على ذلك بقوله تعالى :

﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ ٢ —
التغابن .

وفسروا هذا الآية الكريمة بأن الله خلق الناس فمنهم من انحرف بعمله واختياره إلى الكفر ومنهم من اهتدى بعمله واختياره إلى الإيمان ولذلك فهم الخالقون لأعمالهم المسئولون عنها ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال تعالى ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ .
وقد بنى المعتزلة حججهم أيضاً على قول النبي ﷺ :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه .

وقد اعترض أهل السنة على أفكار المعتزلة ونسبوا الخلق كله لله وحجتهم في ذلك قوله تعالى :

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ ٦٢ — الزمر

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ٩٦ — الصافات .

والمعتزلة قد جانبها الصواب لأنهم لم يستطيعوا التفرقة بين التخيير والخلق فالإنسان مخير في أعماله ولكنه ليس خالقاً لها والفرق واضح بين الخالق والمخير فالخالق للشيء هو القادر على الإتيان به وقتاً شاء وكيفما شاء دون أن يعجزه شيء أو تعترضه الأسباب والمسببات والإنسان كما نعلم قد يأتي ليفعل خيراً أو شراً ولكن القدر قد يتدخل أحياناً لينعه من تنفيذ رغبته .

أما المُنْجَر في أعماله فهو الذى إذا لم تمنعه الأقدار فعل ما اختاره بمحض إرادته وهذا هو شأن الإنسان ولذلك كان متصفاً بهذه الصفة .

وبالرغم من استقلال كل من مذهبي المعتزلة وأهل السنة بفكرته واعتقاده إلا أن حسن النية كان هو الهدف الذى يربط بينهما فالمعتزلة قد نسبت للإنسان خلق عمله لتزهد الذات الإلهية عن الظلم وتنفي عن الإنسان الجبر والإلزام وتجعله مسئولاً عما قدمت يداه ، وأهل السنة قد نسبت الخلق لله تقديساً منها لله وتقديراً له حق قدره واعترافاً بنفوذه وسلطانه في ملكه .

ويمكننا التقريب بين آراء المعتزلة وأهل السنة على ضوء التحليل الذى أوضحناه فى قضية الجبر والاختيار رغبة منا فى إبراز صفتين متلازمتين لله تعالى أولهما عدالة الله المطلقة مع الناس وثانيهما نسب الخلق والأمر لله وحده دون أحد من خلقه إعتراضاً بشأنه وتقديساً لذاته .

ويمكننا تحقيق الإنسجام بين هاتين الصفتين وإبرازهما بإحدى تفسيريّين :

أولهما : إن العبد إذا عقد العزم على الإتيان بالأعمال الصالحة أو الشريرة بكامل حريته واختياره ويسره الله لذلك وأذن بأن يحدث هذا فى ملكه كان هذا التيسير والإذن من الله إيذاناً بأن تخلق الأعمال فى ذلك الوقت بعينه وهو وقت إقبال العبد على الإتيان بتلك الأعمال فكأن تيسير الله وإذنه هو بمثابة النداء الإلهى الأمر العلوى « كن فيكون » كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ٨٢ — يس .

وبذلك تكون الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد .

وثانيهما : إن الله عز وجل قد علم ما سيختاره العبد من الأعمال قبل أن يخلقه فقدر له أعماله وخلقها له حتى إذا جاء وقت التنفيذ كانت تلك الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد .

وبذلك أمكننا بفضل الله عن طريق أي من هذين التفسيرين إبراز صفتين من أهم صفات الذات الإلهية أولهما عدالة الله المطلقة مع الناس وثانيهما نسب الخلق والأمر لله وحده إعتراضاً منا بحق الله وإرضاء لقلوبنا وقلوب المؤمنين ورغبة فى عدم الوقوع فى الإثم والمحذور .

المبحث الثالث

قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء

ذكرنا أن العبد يختار ما يشاء من الخير أو الشر بمحض إرادته ثم تتدخل مشيئة الله لتأذن لهذا الخير أو الشر أن يحدث أو لا تأذن له بالحدوث .

يجب أن نعلم تمام العلم واليقين أن فضل الله على عبده المؤمن لا يقتصر على السماح له بإحداث الخير في ملكه وتوقيفه في مساعيه الصالحة بل يتعداه إلى ما هو أكثر وأهم من ذلك .

إن نور الهدى والإيمان الذى يضيء قلوب الصالحين فتشرح به صدورهم وتضئ به قلوبهم وجوارحهم إنما هو من فعل الله وحده وبفضله وحده فليس لخلق القدرة على التحكم في قلوب العباد حتى الإنسان نفسه لا يستطيع التحكم ولا المحافظة على ما في قلبه من مشاعر الإيمان ، فقلوب العباد جميعهم بين يدي خالقهم ومن أجل ذلك سميت قلوباً لأنها كثيرة القلب ولا يملك تثبيتها إلا الله وحده ومصدق ذلك من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ ٢٤ — الأنفال .

قال رسول الله ﷺ « إن قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » رواه الامام مسلم ، مع التسليم بقوله تعالى « ليس كمثله شيء » وأن ذلك من تمام قدرته سبحانه وتعالى .

وأيضاً دعاء النبي ﷺ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) رواه الترمذى وقال حديث حسن ، كما كان يكثر من قوله « سبحانه مقلب القلوب » ، وقد بين الله لنا في قرآنه أن الفضل له وحده في إنارة القلوب بنور الإيمان فقال تعالى :

﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ ٧ ، ٨ الحجرات .

فالله هو الذى حبيب إليهم الإيمان وهو الذى زينه في قلوبهم وهو الذى كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وهو صاحب هذا الفضل وهذه النعمة .

إن هذا الشعور الفياض بالإيمان الذى تمتلئ به قلوب الصالحين هو من صنع الله أما التعبير المادى عن هذا الشعور المتمثل فى العمل الصالح فهو من صنع العبد واختياره المطلق دون جبر من الله أو قهر .

المبحث الرابع

الله مقلب القلوب وعدالته للإنسانية

إن الله عز وجل قد حدد الأسباب التى من أجلها يوجه قلوب العباد ناحية الهدى أو الضلال حتى لا يظلم أحداً من خلقه فإذا وجد الله من عبده ميلاً إلى الهدى وأخذاً بأسبابه طبع قلبه على الإيمان أما إذا وجد من عبده ميلاً إلى الضلال طبع قلبه على الكفر والنفاق .

وهذا الميل إلى الهدى أو الضلال لا يقصد به الأعمال وحدها بل النوايا أيضاً ولذلك قال ﷺ : « طوبى لمن طابت سريرته واستقامت علانيته » ، وإذا كان الله عز وجل قد امتلك قلوب العباد ووضعها تحت تصرفه فإنه قد ترك لعباده مسئولية أفعالهم ونواياهم كاملة وهى ما يبدون وما يكتُمون وما يخفون وما يعلنون فقال تعالى : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ ٤ — التغابن .

من هذا يتضح أن الأفعال والنوايا من اختصاص العبد أما القلوب فهى من اختصاص الرب . وبرغم أن قلوب العباد هى من اختصاص الله وتصرفه وحده إلا أنه سبحانه يأمرنا ويطلبنا بسلامة القلوب فقال فى كتابه العزيز :

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ٨٨ ، ٨٩ — الشعراء .

والسر في ذلك أن معالجة القلوب التي هي من اختصاص الله هي النتيجة الحتمية المترتبة على أفعال العباد ونواياهم فكأن العبد يمكنه أن يكون سليم القلب إذا استقامت نفسه وصالح عمله والله جل شأنه يهب سلامة القلب لكل من استقامت سريره وعلايته دون محاباه لبعض خلقه على حساب البعض الآخر فإذا طهر الإنسان نفسه من الحقد والحسد والبغضاء والضغينة والأنانية والنفاق والرياء والشح والكبر وتجنب المعاصي وأقبل على الطاعات ولم يتكالب على حطام الدنيا ومفاتها. أمكنه بعون الله أن يكون سليم القلب .

ومعالجة الله لقلوب العباد ليست عشوائية ولكنها تسير وفقاً لسلوك الإنسان والدلائل القرآنية تشير إلى تلك المعاني حيث يقول تعالى :

﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ١١ — التغابن .

فهذا يهدى الله لقلب عبده يتوقف على إيمانه بربه في السر والعلانية ، ويقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ ٢٤ — الأنفال .

أي أن الأمر يتوقف على مدى استجابة العبد لله وللرسول .

والصلة بين معالجة الله لقلوب العباد وسلوكهم تتضح أيضاً في أهل الضلال حيث يقول تعالى :

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ٥ — الصف .

ويشير موسى نبي الله إلى آل فرعون الذين كانوا يعملون السيئات داعياً ربه :

﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ٨٨ — يونس .

والله جل شأنه لا يقذف في قلب عبده الهدى والضلال فحسب بل يقذف في قلبه الطمأنينة والرجاء وفقاً لأعمالهم وسلوكهم يقول تعالى :

﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ٤ — الفتح .

ويقول تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ٢٨ — الرعد .

أما عن أهل الضلال فيقول تعالى : ﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ ﴾ ١٢ — الأنفال .

ويقول في آية أخرى : ﴿ سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ١٥ — آل عمران .

ومن هذا يتبين مدى الوفاق بين معالجة الله للقلوب وسلوك العباد فالسكينة لم تكن إلا للمؤمنين ، والطمأنينة لم تكن إلا للذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والرعب لم يكن إلا للكافرين .

وإذا كان الله تعالى يقول في محكم كتابه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ٥٣ — النحل ، فيجب أن نعلم أن الإيمان الذي يضيء قلوب الصالحين هو من النعم التي ذكرتها الآية الكريمة بل هو أهم وأعظم هذه النعم وهو من الله وحده وبفضله وحده ولذلك وجب علينا أن نشكر الله على نعمة الإيمان الذي قذفه في قلوبنا وأن نسأله أن يثبت قلوبنا على الهدى والإيمان .

وإن شكرنا الله على نعمائه ليجتاح منا إلى شكر آخر لأنه ألهمنا الشكر وأعاننا عليه وجعلنا من عباده الشاكرين .

المبحث الخامس مقومات الهداية

يقول تعالى :

﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت
رسـل ربنا بالحق ونودوا أن تلـكـم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ٤٣ — الأعراف .

معنى الآية الكريمة هو « الحمد لله الذى هدانا لهذا الخير والعمل الصالح الذى
أدى إلى دخولنا الجنة وما كنا لنهتدى لمصادر الخير والعمل الصالح لولا أن هدانا الله
إلى مصادرهما بما أنزله على رسـله من الحق متمثلاً فى الشرائع والرسالات السماوية
فكان هذا العمل الصالح والتسابق فى فعل الخيرات كما أمر الله هو الدليل على طاعتنا
لربنا ولولا أنـا له فـجـانـا الله من الأهوال وأدخلنا الجنة » .

وإذا تدبرنا معنى تلك الآية الكريمة وجب علينا تفسيرها على مرحلتين :

أولاً : الحمد لله الذى هدانا لهذا :

إن الله عز وجل قد أمد الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم بالمقومات التى تحقق لهم
الهداية إذا أحسنوا الاستفادة منها فقد أمدهم بالعقول لعلمهم يعقلون ، وبالأسماع
لعلمهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وبالأبصار لعلمهم يتأملون فى ملكوت
السموات والأرض فيرون من خلالها قدرة الله وعظمته ووحدانيته ويرون الحق حقاً
فيتبعوه والباطل باطلاً فيجتنبوه ويرون حكمة الله فى خلقه وعاقبة الذين من قبلهم
فيعتبرون ويتعظون ، وأمدهم بالأفئدة لعلها تكون أوعية للتقوى والمحبة والخير ،
وبالأسنة لعلمهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الحق ويذكرون الله
كثيراً ، وأمدهم بالضمائر لعلمهم يرجعون إلى ربهم نادمين على ما اقترفوه من المعاصى
والآثام ، وبالجوارح لعلها تمتد إلى الخير ، ووهبهم مقومات الحياة حتى يتمكنوا عبر
تلك الحياة من مواصلة رسالتهم نحو الخير والتعمير ، ودعاهم فى نظير تلك النعم

جميعها إلى شيء واحد قامت عليه حكمة الوجود وسر الخلق هو عبادته سبحانه فقال جل شأنه :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ٥٦ — ٥٨ الذاريات .

ولكن أكثر الناس أبوا إلا أن يبارزوا الله بتلك النعم التي وهبهم إياها فارتكبوا المعاصي والآثام واستخدموها في غير ما خلقت من أجله فأصبحت هذه النعم مقومات للضلال بدلاً من أن تكون مقومات للهداية .

ومن مقومات الهداية أيضاً الكتب والشرائع السماوية التي أنزلها الله للناس جميعاً تميز لهم بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين ما يوجب رضا الله وثوابه وما يوجب سخطه وعذابه وتدعوهم إلى الخير كل الخير وتحببهم إليه وتأممرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتكفل لهم الخير والسعادة والهدى والصلاح إذا امتثلوا لأوامر الله واجتنبوا نواهيه .

ثانياً : وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله :

صدق الله العظيم فيما قال فمن المؤكد أن الإنسان لو ترك لهوى نفسه لضل وإذا اعتصم بالعرف والعادات والتقاليد بما لا يتمشى مع روح الإسلام لضاع أمله في الهداية ، وإذا التجأ إلى آراء الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع يلتبس عندهم الهداية لضل ضلالاً مبيناً ، ألم يقل الله تعالى :

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ ١١٦ — الأنعام .

وكم من القوانين الوضعية والنظريات الفلسفية أثبتت فشلاً زريعاً في صلاحيتها لهداية البشرية والنهوض بالمجتمعات وحل مشاكله .

ولذلك كانت الأديان السماوية هي المصدر الوحيد للهداية وفي مقدمتها الإسلام وقرآنه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من الله العزيز الحكيم . وتأكيداً لتلك الحقيقة فقد حذر الله نبيه من اتباع أهواء الناس فقال تعالى :

﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ ١٢٠ - البقرة .

وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا من بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » .

وصدقت كلمات الله فما كنا لنهتدى لولا كتاب الله وكلماته التى أوحى بها على رسله وأنبيائه . وهذا هو ما يفسر لنا قوله تعالى فى حديثه القدسى « يا عبادى كلکم ضال إلا من هديته فاستهونى أهدکم » رواه مسلم ، والمؤمن الضال هو الذى لم ينبأ بتعليمات الله وأحكامه وإرشاداته فتخفى عليه أمور يجهلها فيها صلاح الدنيا والآخرة ، إذا سار على منهجها هدى إلى طريق الله المستقيم وقويت صلته بربه وهذا هو معنى قوله تعالى لنبیه محمد ﷺ « ووجدك ضالاً فهدى » .

ومن المؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يدخل الهداية فى قلبه حتى ولو اعتصم بالأديان إلا أن يشاء الله مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٦ — ٢٩ : التکویر .

وذلك لأن قلوب العباد بين يدى الله عز وجل فإذا علم الله فى عبده ميلاً إلى الهدى وأخذاً بأسبابه واستقامة على طريقه واستناداً إلى كتبه وشرائعه ومنهاجه وعلم فيه صدق النية والإخلاص فى العمل أخذ الله بيده إلى بر الأمان وأعانه على الهداية وأنار بصيرته وقذف الهدى والتقوى والإيمان فى قلبه فأصبح من المهتدين .

هذا فيما يتعلق بمعنى قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ . وليست الهداية مقصورة على العمل الصالح وحده بل على جوانب الخير جميعها فالعلماء الذين يتوصلون إلى اختراعات علمية مذهلة وجب عليهم بسبب توفيق الله وإعانتة لهم وتسخيره للأسباب والمسببات وتذليله للصعاب التى تعترض طريقهم أن يقولوا بملء أفواههم وصدق إيمانهم « الحمد لله الذى هدانا لما توصلنا إليه من العلم وما كنا لنهتدى إلى تصميم تلك المخترعات لولا أن هدانا الله إليها » .

المبحث السادس أهل الجنة يكرمون وأهل النار لا يكرمون ولا يظلمون

بعض الناس يشفقون على العصاة والمدننين ، ويعتقدون أنهم ينالون من عذاب الله يوم القيامة فوق ما يستحقون بسبب ظلمهم وسوء أعمالهم .

وللد على تلك المزاعم ، نقول بأن الهدف الأول من الأوامر والنواهي التي امتثلت بها الأديان السماوية لم يكن اسعاد البشرية واصلاح شعون حياتهم الدنيا والمحافظة على صحتهم مما تسببه لهم تلك المنكرات التي نهى الله عنها فهذه الأمور جميعها تأتى في المرتبة الثانية ، وإنما كان الهدف الأول والغاية العظمى التي من أجلها جاءت تلك الأوامر والنواهي هى طاعة الله والولاء له ، حباً في طاعته وتصديقاً لما جاء من عنده وإيماناً بحقه في أن يأمر وينهى فيطاع دون معارضة أو شك أو اتباع للأهواء ، ولذلك قال تعالى موضعاً تلك المعاني :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ ٣٦ — الأحزاب .

وقد وصف الله من لم يحكم بما أنزل بالكفر والفسوق والظلم في آيات ثلاثة من القرآن الكريم والله على الناس حق الطاعة والولاء فالإلهية هى أسمى المراتب على الإطلاق والإله بما له من هذه المنزلة الرفيعة وما له من الفضل العظيم والنعم البالغة على مخلوقاته من حقه أن يطاع فلا يعصى فمن اجتروا على معصيته فقد اقترفوا جرماً عظيماً يوجب العقاب والهلاك وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ ٦١ — النحل .

إن رحمة الله قد سبقت غضبه فلم يستخدم حقه في إهلاك كل من عصاه وإنما كان غفوراً رحيماً .

ومنحة الغفران قد وهبها الله لعباده التائبين قبل أن يدركهم الموت فمن أصر على المعصية ولم يقدم التوبة ومات مصراً على معصيته حرم المغفرة فكان حقاً على الله أن يعذبه يوم القيامة .

وعلى قدر المعصية وعلى قدر منزلة من ترتكب في حقه المعصية يكون العقاب فإذا بلغت المعصية ذروتها ووصلت إلى الكفر بالله الذي لا إله سواه كتب لمقترفها الخلود في النار لينال أشد العذاب . والكافر يوم القيامة عدو لله لا يكرمه الله ولا يتفضل عليه فلا يحاسبه على أفعاله وخطاياها فحسب بل يحاسبه أيضاً على كل النعم التي وهبها له في دنياه وكفر بها وجحدتها إذ لا يحق للكافر أن يتفضل الله عليه بشيء فالخلق والصحة والمال والمأكّل والمشرب والزوجة والذرية وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا جميعها نعم يحاسبه الله عليها وتضاف إلى ميزان سيئاته ولذلك يقول تعالى :

﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ ٨ — التكاثر .

وإذا تدبرنا قوله تعالى :

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ ٣٤ — إبراهيم :

لعلمنا أن نعم الله على عبده الكافر التي يصعب بل يتعذر حصرها ستصل حتماً إلى اللانهاية .

وطالما أنها نعم لا نهائية بلا حدود فالعقاب عليها أيضاً بلا حدود فإذا حاسبه الله عليها كان مصيره الذي لا ريب فيه هو الخلود في النار .

فالإجترأ على معصية الإله الخالق والكفر به وعدم إمكانية حصر نعمه على عبده تؤدي لا محالة إلى الخلود في النار وهذا هو ما يستحقه الكافر بالضبط دون إكرام أو ظلم من الله ولذلك يقول تعالى عن عذاب أهل النار ﴿ جزاءً وفاقاً ﴾ ٢٦ — النبأ ، أى جزاء لهم وفق أعمالهم تماماً ، ومن هذا يتبين أن الله عز وجل يعامل الكفار بمنطق العدل وليس بمنطق الرحمة فالرحمة جعلت للمؤمنين الأتقياء وحدهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ ١٥٦ — الأعراف .

وينحصرنى هنا قوله تعالى في حديثه القدسي :

« إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ،
خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتجيب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم ،
ويتباضون إليّ بالمعاصى وهم الفقراء إليّ » .

إذا نظرنا إلى أهل الجنة لوجدنا أنهم مكرمون وينالون أكثر مما يستحقون
بأعمالهم ، والكريم هو الذى يعطى أكثر مما يأخذ أما أكرم الأكرمين وهو الله عز
وجل فهو الذى يعطى بلا حدود دون أن يأخذ شيئاً لأنه هو الغنى الحميد .

ومن مظاهر تكريم الله للمؤمنين من عباده تجاوزه عن النعم التى وهبها لهم في
دنياهم بما فيها نعمة الخلق والوجود فلم يحاسبهم عليها لأنهم نسبوها إلى الله ولم يكفروا
بها فجعلها الله لهم حقاً مكتسباً بخلاف الكافرين ولذلك قال تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين
ءامنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ ٣٢ — الأعراف .

وأهل الجنة لا يدخلونها بأعمالهم ولكنهم يدخلونها برحمة الله ويعد هذا مظهراً آخر
من مظاهر اختصاصهم به أكرام الأكرمين الذى يعطى بلا حدود دون أن يأخذ
شيئاً فمن قدم صالحاً فلنفسه والله غنى حميد فإذا قيل بأن متاع الجنة ونعيمها مطابق
تماماً لأعمال أهل الجنة لضاع معنى التكريم والتفضل الإلهى ، ولذلك فقد ورد أن
النبي ﷺ قال لأصحابه : « لن يدخل أحداً عمله الجنة ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله
بفضل رحمته » متفق عليه .

ولعل هذا الحديث النبوى يتفق تماماً مع دعاء سليمان عليه السلام في قوله
تعالى :

﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ١٩ — النمل .

ونحن نعلم أن من أهل الجنة من امتلأت حياته الدنيا بالشور والآنم وخلت تقريباً
من الأعمال الصالحات ولكنه ختم حياته بالتوبة النصوحة التى توفرت فيها مشاعر
الندم والصدق والإخلاص فقبل الله توبته وغفر له ما سلف وأدخله الجنة فهل استحق
الجنة بعمله أم استحقها برحمة الله وقضله ورضوانه ؟ .

وإذا عمرت حياة العبد بالأعمال الصالحة وقورنت بنعم الله عليه التي لا تحصى ولا تعد منذ أن خلقه إلى أن أماته فهل يتبقى له بعد ذلك من الأعمال الصالحات ما يسمح له بدخول الجنة عن استحقاق ؟ .

وإذا علمنا أن الفوز معناه الحصول على أكثر من المستحق ، وإذا علمنا أيضاً أن تجارة العبد مع ربه هي تجارة رابحة لصالح العبد لأمكننا الاستدلال بهذه الآيات القرآنية لإثبات تفوق نعيم الجنة على أعمال العباد حيث يقول تعالى :

﴿ إِنِ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ ٣١ — النَّبَأُ .

ويقول سبحانه :

﴿ فَمَنْ زَحَرَحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۝ ١٨٥ — آل عمران .

ويقول تعالى مشيراً إلى أن نعيم الجنة يفوق أعلى درجات العمل الصالح وهو الجهاد بالنفس والمال :

﴿ إِنِ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ ١١١ — التوبة .

ولذلك كانت تجارة المؤمنين مع الله تجارة رابحة تستحق البشرية .

وربما يتساءل بعض الناس إذا كان أهل الجنة يدخلون الجنة برحمة الله وفضله فما فائدة أعمالهم الصالحة ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول بأن الأعمال الصالحة لأهل الجنة بما فيها التوبة قد جعلها الله مؤشراً ودليلاً على طاعتهم لربهم وولائهم له وإيمانهم به وهذا هو لب الأديان والله لا يريد من عباده أكثر من هذا فالأعمال الصالحة هي جواز المرور أو تذكرة الدخول التي تبيح للعباد أن يجتازوا أهوال يوم القيامة وأن يمروا سالمين فوق الصراط المنصوب على ظهر جهنم وأن يدخلوا الجنة فإذا دخلوها كانوا في رحمة الله وفضله فأعطاهم الله بلا حدود عطاء يفوق أعمالهم ولكنه يتفاوت فيما بينهم تبعاً لأعمالهم فأفضلهم عطاء منزلة النبيين ثم الصديقين ثم الشهداء ثم الصالحين ثم المحسنين من

المؤمنين ثم عامة المسلمين وجميعهم أعد الله لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا
خطر على قلب بشر .

الباب الثالث

الفصل الأول

القدر الاختياري والقدر الإجباري

القدر الاختياري هو ذلك النوع من القدر الذى تتدخل فيه مشيئة الإنسان حبا إلى جنب مع مشيئة الله وهو عبارة عن علم ومشيئة .. علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد ويبرز إلى حيز الوجود .

وكل ما تناولناه بالذكر فى الصفحات السابقة إنما هو قدر اختياري وكلمة اختياري لا يقصد بها وصف القدر من حيث حدوثه أو عدم حدوثه فالقدر لابد واقع لا محالة وإنما يقصد به إحتواء هذا القدر على اختيار العبد جنبا إلى جنب مع مشيئة الله تمييزاً له عن القدر الإجباري الذى لا دخل لاختيار العبد فيه ، وكلا النوعين من القدر الإجباري والاختياري لابد لهما من الحدوث لا محالة .

والى الذين لا يريدون لهذا النوع من القدر أن تتدخل فيه مشيئة الله جنبا إلى جنب مع اختيار العبد نقول لهم بأن هذه المشيئة الإلهية هى أمر حتمى لأن الله الذى خلق الزمان قد طواه طوع إرادته فتسلوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل وعلم ما كان وما يكون وما سيكون من عبده وعنصر المفاجأة لا يجوز لذات الله فمن المحال أن يفاجيء العبد ربه بما لا يعلمه لأنه لا يأتى بمجديد بل الكل قديم فى علم الله ، وكما أن المشيئة أمر حتمى فهى أيضاً أمر ضرورى للمحافظة على توازن نظام الكون وتوازن أحداثه وأحداث العباد فلو ترك الأمر لاختيار العباد فقط لاختل النظام وتعاضت المصالح وتضاربت الأحداث وما أمكن ربط أحداث الكون بعضها ببعض لأن فى اختيار العبد الواحد قد تتحدد مصائر أناس آخرين .

وهذه المشيئة الإلهية القادرة على التحكم فى الأحداث والسيطرة على الكون بأكمله هى منتهى القدرة والحكمة والشمول والإحاطة .

وإذا كان القدر الاختياري هو عبارة عن اختيار من العبد قد تمت الموافقة عليه من الله عز وجل فبرز إلى حيز الوجود فإن هناك نوعاً آخر من القدر لا دخل للإنسان فيه ولا اختيار له بجانب المشيئة الإلهية ذلك هو القدر الإجباري ومنه ما يختص بذاتية الإنسان كالأعمار والأرزاق والميلاد والوفاة والصحة والمرض وطبيعة الجسم حجماً ولوناً ومنظراً وطبيعة النسل عدداً ونوعاً ، ومنه ما يختص بذاتية الكون كنزول المطر وشروق الشمس شرقاً وغروبها غرباً وتعاقب الليل مع النهار والصيف مع الشتاء والشمس مع القمر وطبيعة الأرض وما تحدث لها من هزات وزلازل وبراكين .

وكما أسلفنا الذكر فإن كلا النوعين من القدر الإجباري والإجباري حتمى الحديث لا محالة مصداقاً لقوله تعالى ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ ٤٩ — القمر ، ﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ ٣ — الطلاق ، ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ ٢ — الفرقان ، ومصداقاً لقول النبي ﷺ « لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » رواه أحمد الترمذى وقال حسن صحيح ، فيفهم من ذلك أنه لا شيء يسبق القدر .

ومصداقاً أيضاً لقوله النبي ﷺ « جف القلم بما أنت لاق » رواه البخارى ، وقوله « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » رواه مسلم ، وقوله « رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

ويمكننا وضع تعريف جديد لكل من القدرين فالقدر الإجباري هو ما أصابك من حيث لا تدري دون إرادة منك أو تعمد سواء أكان شراً أم خيراً .

أما القدر الاختياري فهو ما حدث بقصد منك وتعمد سواء أكان خيراً أم شراً . فإذا أردت أن تضرب غلاماً ولكنه قتل خطأ فذلك قدر إجباري ، أما إذا أردت قتله فقتلته فذلك قدر اختياري ، وإذا أعطيت مريضاً الدواء خطأ بقصد الشفاء فمات كان ذلك قدراً إجبارياً ، أما إذا علمت تأثير الدواء على حياته فقتلته به عمداً كان ذلك قدراً إختيارياً .

ومن نماذج الأقدار الإجبارية النسيان والإكراه لقوله ﷺ « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه » رواه الطبراني بسند صحيح .

ولقد أشار الله عز وجل إلى كثير من الأقدار الإجبارية نذكر منها قوله تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ ٧٨ — النساء .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ١٤٥ — آل عمران .

﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَقِيَكُمْ ﴾ ٨ — الجمعة .

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ ١٥٤ — آل عمران .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ٦١ — النحل .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ١١ — التغابن .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ٢٣ — الحديد

﴿ قُلْ لَنْ يَصِيْبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ ٥١ — التوبة .

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ١٥٦ — البقرة .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضْرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ ١٠٧ — يونس .

كما أشار النبي ﷺ إلى كثير من الأقدار الإجبارية نذكر منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك »

أخرجه أحمد بسند صحيح .

« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

« وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » رواه مسلم .

« لا يتمنين أحدكم الموت لضرِّ أصابه » متفق عليه .

ومن روائع قدرة الله وحكمته البالغة حدوث نماذج متعددة لصور الانسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الاثنين ، وبحيث يتعانقان ويتلاقيان معاً في النهاية في خط واحد ومفهوم واحد . وهذا الانسجام أمر لا بد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس .

وهناك نوعان من الانسجام بين النوعين من القدر ، نوع يحدث بين شخصين أو أكثر ، ونوع يحدث لشخص واحد فقط .

والأمثلة على النوع الأول كثيرة ومتعددة ، فإذا تأمرت جماعة على قتل إنسان ما فقتلوه فقد أصابهم قدر اختياري بحاسبهم الله عليه وأصاب القتل قدر إجباري ، لأن الموت والأعمار ضمن الأقدار الإجبارية التي تصيب الإنسان ولا دخل له فيها .

وإذا قتل إنسان جماعة من الناس فقد أصابه قدر اختياري ، وأصابهم قدر إجباري .

وإذا قتل إنسان إنساناً آخر فقد أصاب القاتل قدر إختياري وأصاب المقتول قدر إجباري .

وما ينطبق على القتل ينطبق أيضاً على غيره من جوانب الشر .

وبالمثل إذا ترك غني وصية أو جزءاً من ماله لرجل فقير ، فقد أصاب الأول قدر إختياري وأصاب الثاني قدر إجباري ، لأن الرزق ضمن الأقدار الإجبارية .

وما ينطبق على الصدقات ينطبق على غيرها من جوانب الخير .

ومصادقا لهذا الانسجام بين القدرين ، يقول ﷺ : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

فإقبال الأمة على منفعتك أو إضرارك قدر اختياري ، أما ما يصيبك منهم من منفعة أو إضرار فهو قدر إجباري لا بد أن يصيبك رضى أم أيت .

أما الأمثلة على النوع الثانى من الإنسجام بين القدرين ، والذي يحدث لشخص واحد فقط فهو كأن يقتل إنسان نفسه عمداً فيكون قاتلاً ومقتولاً فى نفس الوقت ويصاب بالنوعين من القدر قدر اختياري لأنه ارتكب هذه الجريمة الشنعاء ، وقدر إجباري لأنه ذاق الموت والموت ضمن الأقدار الإجبارية .

ومن الملاحظ أن الأفعال الاختيارية متخللة بين الأفعال الجبرية وتقدير الله السابق لما سيفعله البشر مختارين ، فالعبد يسأله ربه عن فعله الاختياري ونفس هذا الفعل الاختياري قد يؤثر بمشيئة الله على عبد آخر يتلى به فيكون بالنسبة له قدر إجباري لا يملك دفعه ولذلك لا يسأله عنه ربه .

من هنا يتبين لنا بأن الأقدار الاختيارية هى وحدها التى يحاسب عليها الإنسان وتؤثر فى ميزان حسناته وسيئاته يوم القيامة ، أما الأقدار الإجبارية فلا يُسأل عنها العبد.

وليس حتماً بأن يحدث الإنسجام بين الأقدار الاختيارية والإجبارية ولا أن تولد المسببات بمجرد الإتيان بالأسباب ، فمشيئة الله لا تخضع لقانون ثابت ، فقد يأتي الله عز وجل بأقدار إجبارية لا تنسجم إطلاقاً مع الأقدار الاختيارية لكى يبرهن على أن المسببات من صنع يده وليست وليدة الأسباب — كما يتوهم البعض — ولنضرب مثلاً على ذلك ما حدث لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما أراد قومه أن يجمعوا الحطب ويشعلوا النيران ، فمكثهم الله من ذلك ، ثم أرادوا أن يلقوا إبراهيم عليه السلام وسط هذه النيران المشتعلة ، فمكثهم الله من ذلك ، وتمت بذلك الأقدار الاختيارية التى سعوا إليها باختيارهم وإرادتهم الحرة .

وحاء القدر الإجباري لينسجم مع الأقدار الاختيارية معلناً هلاك إبراهيم الخليل محترقاً وفقاً لسنن الطبيعة المألوفة ، ولكن الله عز وجل لم يأذن لهذا الإنسجام أن يحدث ، ولم يرض لنبيه ذلك المصير المروع ، ففضى لنبيه قدراً إجبارياً من نوع آخر ، ألا وهو النجاة من النار وأبطل قدراً إجبارياً هو من أخص خصائص النار ألا وهو قدرتها على الإحترق ، يقول تعالى :

﴿ قالوا حرقوه وانصروا ءالهمكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ ٦٨ — ٧٠ : الأنبياء .

وهم بذلك قد أتوا بالأسباب ، ولكن المسببات تخلفت بقدرة الله ومشيئته ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والقدر يستمد قوته من مشيئة الله فكما أن مشيئة الله نافذة فإن قدر الله أيضاً نافذ لا مرد له مصداقاً لقول النبي ﷺ « قدر الله وما شاء فعل » .

ولقد التبس على بعض الناس فهم بعض الأحاديث النبوية فظنوا أن قدر الله قد يرد شئ من دعاء أو بر أو صلة رحم بيننا هذه الأمور التي يأتيها العباد تدخل ضمن أقدارهم وقد كتب الله لهم ولغيرهم أقدارهم وفق ما يعلمه من دعائهم وبرهم وصلاتهم لأرحامهم قبل أن يخلقهم ، وإلى هؤلاء نسوق إليهم قول النبي ﷺ « لو كان شئ يسبق القدر لسبقته العين » رواه أحمد والترمذي وقال حسن صحيح ، ففهم من ذلك أنه لا شئ يسبق القدر ، فضلاً عما سبق سرده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على حتمية القدر .

إن العذاب أو البلاء يوشك أن ينزل على العباد فيلقاه الدعاء المستجاب فيكشف الله عنهم العذاب قبل أن يمسه فلا يكون قدراً لهم وذلك كما حدث مع قوم يونس لما آمنوا بربهم وابتلوا إليه بالدعاء كشف عنهم العذاب قبل أن يقع عليهم وبذلك لم يكن هذا العذاب ضمن الأقدار التي كتبت عليهم . والعبد قد يمسه الضر فيدعو ربه فيكشف ما به من ضر كما حدث لنبي الله أيوب عليه السلام فمثل هذا العبد أصابه الضر بقدر الله إلى وقت معلوم ثم لما دعا ربه كشف عنه الضر بقدر آخر وفق ما علمه الله من دعائه قبل أن يخلقه ويقدر له المقادير ، فلا القدر الأول منع ولا القدر الثاني مع بل كلاهما حتمي الخلو في علم الله .

وبذلك يتبين لنا معنى قول النبي ﷺ « لا يرد القدر إلا الدعاء » ، وقوله ﷺ « لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » .

فالقدر هو ما نزل وليس ما لم ينزل ، ينزله الله على عبده إلى وقت معلوم ثم يرفعه عنه بقدر آخر .

الفصل الثاني

معصية آدم عليه السلام

(على ضوء قضية الجبر والاختيار)

قال تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تظلمون فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ١١٥ — ١٢٢ طه .

وآدم عليه السلام كان طبيعياً أن يجمع بين الطاعة والعصيان لأنه أب للبشر جميعاً طائعهم وعاصيهم ، فحينما أكل من الشجرة كان عاصياً لربه ونموذجاً لمعصية ذريته من بعده ، ولكنه حينما هبط إلى الأرض كان هادياً معصوماً ونموذجاً للطائعين التائبين العابدين من ذريته .

وإذا أمعنا النظر في قصة آدم عليه السلام واستخلصنا منها العبرة والعظة بعد تحليلنا للآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه القصة لعلنا أن آدم عليه السلام كان مقدراً له قبل أن يخلقه الله أن يكون خليفة في الأرض يورثها لذريته من بعده ليعمرها وليتفاقم الصراع بين الحق والباطل ، فمنهم المصلح ومنهم المفسد ومنهم الأبرار ومنهم الفجار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ٣٠ — البقرة .

وأراد الله لآدم وذريته من بعده أن يسكنوا الأرض ، وكان هذا قدرهم لاحيلة لهم في دفع قدرهم الذى قدره الله لهم ، ولذلك شاءت حكمة الله أن يخلق آدم من تراب

الأرض كما جاء في قوله تعالى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ٥٥ — طه .

وقوله تعالى ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ٢٥ — الأعراف .

ولكن الله تبارك وتعالى لم يهبط آدم عليه السلام إلى الأرض ولم يسكنه فيها إلا بعد أن جعله يخوض تجربة يتعرف عن طريقها على حقيقة ذاته ويستخلص منها دروساً مستفادة تعينه على مواجهة أعباء الحياة في الأرض بما فيها من متاعب وآلام ، فقد أسكنه الله الجنة وأمره وزوجته ألا يقربا الشجرة ، وحذرهما من عداوة الشيطان ، ثم تركهما بعد أن أمدهما بالعقل المفكر والاختيار الحر والنفس الملهمة بالتقوى والفجور بالمناصفة ، ولكن الشيطان وسوس لهما فاخترتا المعصية على الطاعة وكان هذا امتحاناً لهما من الله ، فلما انكشفت عوراتهما أحسا بالاثم والخطيئة وندما على ذلك فأقبلا يستترانها بورق الجنة وحيث ناداهما ربهما معاتباً ، قال تعالى ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما زهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ ٢٢ — الأعراف .

فأجابا ربهما نادمين ﴿ قالاً ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ٢٣ — الأعراف .

حيث نفذ قضاء الله وقدره الأزلى فيهما والذي كتبه عليهما قبل أن يخلقهما بأن يهبط آدم وزوجه إلى الأرض وأن يجعله فيها خليفة يورثها لذريته من بعده ليعمرها جيلاً من بعد جيل ، على هذه الأرض التي خلقوا منها يعيشون وفيها يموتون ومنها يعيشون ، ويتلهم وقت استقرارهم على هذه الأرض في حياتهم الدنيا بأن يبعث لهم الأنبياء والرسالات السماوية لينظر كيف يعملون فمن اتبع الهدى فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وكان من أهل الجنة ، ومن أعرض عن الهدى وكفر بما جاءه من ربه فإن له في الدنيا معيشة ضنكا وله في الآخرة العذاب والشقاء وكان من أهل النار .

والله عز وجل لم يجبر آدم وزوجه على معصيته ولكنه خلق نوعاً من الإنسجام بين

اختيارهما الحر للمعصية وقدرهما الذى قدره لهما وهو الهبوط إلى الأرض ليكون لهما فيها مستقر ومتاع إلى قيام الساعة .

وشاءت حكمة الله أن يتعلم آدم من هذه التجربة القاسية التى عاشها دروساً تعينه وذريته من بعده على مواجهة الحياة ، فتعرفوا على حقيقتهم وغرائزهم البشرية ، ويتقنوا من عداوة الشيطان لهم ، واتخذوا من التوبة والاستغفار وسيلة يتطهرون بها من خطاياهم وسبيلاً إلى مرضات ربهم يلتمسون منه الصفح والعفو والعون على مواجهة أعباء الحياة فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وتعلموا أن القوة والغنى والسعادة فى اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه والإعتصام بشرائعه ورسالاته ، وأن العجز والفقر والذل والتعاسة فى اتباع هوى النفس والاستغناء بغير الله عن الله .

الدروس والعبر المستفادة من قصة آدم عليه السلام :

١ - التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة بشهادة الإله الخالق الذى يعلم من خلق وما تخفى الصدور ، وتكرار تحذيره لآدم وذريته من مغبة ذلك ، قال تعالى ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ ، ثم إن الله عز وجل أعاد تذكير آدم بهذه العداوة بعد أن وقع فى الفخ الذى نصبه الشيطان له قال تعالى ﴿ ألم أنهيكم عن تلكم الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

ثم تعاقبت ذرية آدم من بعده جيلاً من بعد جيل واستمر التحذير الإلهى يقول تعالى :

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ٦ - فاطر .

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ١٦٨ ، ١٦٩ - البقرة .

﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ ٢٧ - الأعراف .

ثم يوم القيامة يذكر الله أهل الكفر والمعاصي من بنى آدم بتحذيره المستمر لهم من عداوة الشيطان في حياتهم الدنيا ويوحيهم على عبادتهم للشيطان من دون الله بطاعته واتباع ما يأمرهم به من الكفر والفحشاء والمنكر ، ولكن بعد أن انتهى كل شيء فلم تعد تنفع التوبة ولا الندم فيساقون إلى جهنم وبئس المصير ، قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ ٦٠ — ٦٤ : يس ، حيثئذ يتبرأ الشيطان من هؤلاء الكفار والعصاة ويحملهم مسئولية أوزارهم ، يقول تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرحى إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ ٢٢ — إبراهيم ، ويقول تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ١٦ — الحشر .

٢ - إن التحذير الإلهي المتكرر لآدم عليه السلام وذريته من بعده من عداوة الشيطان وسوء عاقبة من يطيعه ويتولاه من دون الله لدليل على أن الإنسان مخير في ذلك ، إذ أنه لو كان مسيراً لما استطاع الانتفاع من هذا التحذير ، إذ أن الله عز وجل من المحال أن يكلف عباده بأمر يستحال عليهم تنفيذه ؛ فعلم من ذلك أن معاصي العباد وقعت بمحض إرادتهم واختيارهم يدل على ذلك توبيخ الله لمن أطاع الشيطان واتبع خطاه قائلاً لهم « أفلم تكونوا تعقلون » والعقل هو مناط الاختيار والتكليف كمثل قول أهل النار ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ ١١ الملك ، فقد حجبا أسماعهم وعقولهم عن الحق واتبعا شهوات النفس وخطوات الشيطان فأضلهم عن سبيل الله .

ومن الأدلة أيضاً على أن معاصيهم تمت باختيارهم أن الشيطان بعد أن قضى الأمر خطبهم في جهنم وتبرأ منهم وألقى باللوم عليهم وحملهم مسئولية أوزارهم .

٣ - لعل سائل يتساءل لماذا غفر الله لآدم عليه السلام معصيته ولم يغفر لابليس معصيته ؟ هناك ثلاثة أسباب الأول يتعلق بطبيعة المعصية ، والثاني يتعلق بالدافع وراء المعصية ، والثالث يتعلق بموقف العاصي فور ارتكابه لمعصيته .

(أ) بالنسبة للسبب الأول فإن مضمون معصية ابليس أن الله جل شأنه أمره أمراً مباشراً واجب التنفيذ فوراً ، فهو أمر لا يحتمل التأجيل ولا التسويف ، حيث أمر الله ابليس والملائكة بالسجود لآدم تكريماً له فسجد الملائكة كلهم أجمعون فور صدور الأمر الإلهي ، أما ابليس فرفض تنفيذ أمر ربه وأعلن تمرده وعصيانه جهاراً ، ولم يكتف بذلك بل إنه انتقص من علم الله وحكمته وأراد أن يشارك الله في حكمه وملكه ، ذلك أنه ادعى أن آدم عليه السلام لا يستحق هذا التكريم وأنه أحق منه بالتكريم لأنه خير منه خلق من نار وآدم خلق من طين ، ونسى أن الله عز وجل هو الذي خلقه من نار فلا فضل له في هذه الخلقة ، وأن ميزان التفضيل والتكريم لا يبنى على الجسد المادى وإنما يبنى على القيم الروحية كقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ إن الله عليم خبير ﴿ ١٣ - الحجرات ، فذات المخلوق ليست في جسده وإنما في روحه التي هي حبيسة هذا الجسد ، يقول تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٥٨ - الإسراء .

كما أنه تجاهل أن التفضيل والتكريم حق للإله الخالق لا ينازعه في ذلك أحد ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٧٣ - آل عمران ، وقال تعالى ﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ٣٢ - النجم .

فالله عز وجل كان عليمًا حكيمًا فعندما كرم آدم وفضله على ابليس يعلم أنه يملك من التقوى وصفاء الروح ونقاء النفس والتواضع وكافة القيم الروحية مالا يملكه ابليس كما أنه سبحانه أودع في آدم من الاستعدادات الفطرية والطاقة العقلية والفكرية ما يجعله أفضل من ابليس في عمارة الأرض والقيام بأعباء الخلافة ، وسواء علمنا الأسباب أو جهلناها فإن الإله الخالق من حقه أن

يؤتي الفضل والتكريم لمن يشاء من عباده فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، قال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون ﴾ ٦٨ - القصص ، وقال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ ٢٦ - آل عمران .

أما مضمون معصية آدم عليه السلام فهي أن الله عز وجل عهد إليه إذا أدخله وزوجه الجنة ألا يأكلا من الشجرة وحذرهما من عداوة الشيطان لهما ، ولم يرفض آدم أمر ربه حين أمره بذلك بل وعد أن ينفذ ما أوصاه الله به ولكنه نسي أن يحذر من الشيطان فلما وسوس إليه بما يحقق حلمه ويرضى شهوات نفسه نسي في لحظة الضعف وصية الله له ألا يأكل من هذه الشجرة أو تأولها فأكل منها يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾ .

ومعلوم أن الأمر الصادر من الله عز وجل لآدم عليه السلام لم يكن على شاكلة أمره لابلis بالسجود الفوري فإما أن يسجد وإما ألا يسجد باعتباره واجب التنفيذ الفوري دون تأجيل ولا تسويف ، ولكنه كان أمراً مؤجلاً التنفيذ ، ولم يرفضه آدم بل تلقاه بالقبول إلى أن صادفه عارض أنساه أمر ربه فوقع في المعصية .

(ب) أما السبب الثاني فإن الدافع وراء معصية ابليس كان الكبر والتعالى عن تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ظناً منه أنه خير منه لأنه خلق من نار أما آدم فقد خلق من طين ، ومعلوم أن صفة الكبر يذمها الله في عبده لأن الكبرياء لله وحده فما من عبد ينازع ربه هذه الصفة إلا عذبه ، كما أن الله عز وجل قضى أن لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، والجنة هي رحمة الله والنار هي عذابه لذلك فإن ابليس استحق لعنة الله وهي تعنسى الطرد من رحمته وما ذاك إلا لثلاثة أسباب ، السبب الأول امتناعه عن تنفيذ أمر ربه ، والسبب الثاني مجادلته لربه لأنه فضل آدم وكرمه عليه وادعاه بأنه أحق بالتكريم من آدم لأنه خير منه من حيث الخلقه فهو بذلك قد انتقص من علم

الله وحكمته وأراد أن يشاركه في حكمه وملكه ، وذلك على النقيض من الملائكة الذين قالوا لهم ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ٣٢ — البقرة ، والسبب الثالث ما امتلأ به صدره من الكبر والحقدهما لا يخفى على الله الذى يعلم ما تخفى الصدور .

أما الدافع وراء معصية آدم فهو ضعف إرادته ، فقد وسوس إليه الشيطان بما يحقق له شهوات نفسه من الخلود والملك وعدم زوال نعمة الله عليه إن هو أكل من الشجرة وأقسم له بالله إنه لمن الناصحين حتى يصدقه ، قال تعالى عن ابليس ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ ٢١ — الأعراف ، واستعظم آدم أن يقسم أحد بالله وهو كاذب فصدقه ، ولم يزل ابليس بادم يغريه ويحرك شهواته ويقسم له حتى أنساه ما نهاه الله عنه فأكل من الشجرة ناسياً أو متأولاً ، المهم أنه عصى ربه ووقع في الفخ الذى نصبه الشيطان له لأنها كانت التجربة الأولى له مع الشيطان حيث تعلم منها الكثير والكثير .

(ج) أما السبب الثالث والذى يتعلق بموقف العاصي فور ارتكابه لمعصيته فإن ابليس بعد ارتكابه للمعصية لم يقر بذنبه ولم يندم ولم يطلب من الله العفو والصفح والغفران ، بل على العكس من ذلك فقد طلب من الله أن يمهله ويبقى عليه حياً حتى يوم البعث لينتقم من آدم وذريته ويوسوس لهم ويضلهم عن سبيل الله فيحرمون صفة التكريم ويدخلون جهنم إلا المخلصين لله منهم وهم قليلون ، قال تعالى عن ابليس ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئس أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ ٦٢ الإسراء ، وقال تعالى حاكياً عن ابليس ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ١٧ — الأعراف .

أما آدم عليه السلام فإنه بمجرد أن عاتبه ربه على معصيته أقر بذنبه وأعلن توبته وندمه وطلب من الله الرحمة والغفران ، قال تعالى على لسان آدم وزوجه ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ٢٣ — الأعراف .

٤ - يقول تعالى ﴿ قل هو نبيّ عظيم ، أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملاّ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلّى إلا أنما أنا نذير مبين ، إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا ابليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ ٦٧ — ٧٤ : ص .

وما لا شك فيه أن القرآن الكريم ليس هو المقصود بقوله تعالى ﴿ قل هو نبيّ عظيم ﴾ ، لأن القرآن الكريم بالاضافة إلى ما فيه من الأحكام التى تنظم حياة البشر فى أمور المعاملات والعبادات والعقائد ومسائل الحلال والحرام فإنه لا يشتمل على نبيّ واحد فقط بل مجموعة من الأنبياء والأخبار الغيبية للأولين والآخرين وما كان وما سيكون بغرض الاعتبار والاعتاظ والتذكرو ، من أجل ذلك فإن القرآن الكريم لا يطلق عليه لفظ (نبيّ) بل يطلق عليه لفظ (ذكر) . طالما أنه بين أيدينا والدليل على ذلك قوله تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ٩ — الحجر .
 ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ ٥٠ — الأنبياء .
 ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ٢٧ — التكوير .
 ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ ٤٥ — ق .
 ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾ ١ — ص .
 ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ — القمر .

أما قوله تعالى عن القرآن الكريم ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ٨٧ ، ٨٨ ص ، أى ولتعلمن يوم القيامة صدق ما أخبر به القرآن الكريم من أنباء وأخبار غيبية .

إن الأسلوب القرآنى عندما يتحدث عن نبيّ من الأنبياء التى لها قصة فإن الله تعالى يبدأ بلفظ (النبأ) أولاً ليجذب الإنتباه لسماع القصة ، ثم تأتى القصة بعد ذلك ، وكمثال على ذلك قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم

بالحق ﴿﴾ ، ﴿﴾ واتل عليهم نبأ نوح ﴿﴾ ، ﴿﴾ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴿﴾ ، ﴿﴾ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿﴾ ، ﴿﴾ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴿﴾ . فإذا قارنا ذلك بقوله تعالى ﴿﴾ قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ﴿﴾ حتى قوله تعالى ﴿﴾ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴿﴾ وانتهاء بقوله تعالى ﴿﴾ قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴿﴾ ، لعلمنا أن النبأ العظيم هو قصة خلق آدم وتكريمه ، وإعلان إبليس عداوته لآدم وذريته بسبب هذا التكريم ، ثم وعيد الله بأن يملأ جهنم بإبليس ومن يتبعونه من ذرية آدم) .

وإذا أمعنا النظر لوجدنا أن لفظ (نبأ) ورد في القرآن الكريم خمسة عشر مرة منها مرتين فقط وصف الله فيهما النبأ بأنه عظيم ، المرة الأولى نبأ يوم البعث قال تعالى ﴿﴾ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون ﴿﴾ باعتباره يوم الجزاء فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ومن كفر أو خفت موازينه لكثرة المعاصي دخل النار .

أما المرة الثانية التى وصف فيها النبأ بأنه عظيم فهو تفاصيل هذه القصة التى بين أيدينا والتى تتضمن الحوار الذى تم بين الله عز وجل وإبليس عليه لعنة الله ، حيث أظهر إبليس عداوته لآدم الذى كرمه الله وفضله عليه وتوعد بأن يبدل قصارى جهده لإغواء الأكره من ذرية آدم وصرفهم عن طاعة الله إلى معصيته ، ثم وعيد الله عز وجل له ولمن اتبعه منهم أن يدخلهم جهنم وبئس المصير وتحذيره لآدم وذريته من بعده من شدة عداوة الشيطان لهم وأن عليهم أن يبادلوه العداة ولا يطيعونه .

والحقيقة أن نبأ هذه القصة بالذات ليست كنبأ أى قصة أخرى حدثت لأى نبي من الأنبياء أو لأى أمة من الأمم ومن أجل ذلك فقد استفتحها الله تعالى بقوله ﴿﴾ قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ﴿﴾ لأنها تسجل مولد الشر المتمثل فى إبليس اللعين ، وتمهد لبداية الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، كما أنها تمهد لأول معصية بشرية وبالتالي بداية العداوة المتبادلة وإعلان الحرب بين آدم وذريته وإبليس وذريته حيث حذرنا الله من عداوتهم بقوله

﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ٥٠ .
— الكهف .

لو أدرك الناس مغزى هذه القصة والحوار الذى تم بين الله عز وجل وإبليس اللعين لما وقع أكثرهم فى حبال الشيطان ولكن للأسف فهم عن هذا النبأ العظيم معرضون عن تدبر ما فيه من العبرة والعظة علماً بأن جميع المعاصى التى ارتكبها وسيرتكبها بنو آدم استجابة لوسوسة الشيطان لها صلة قوية بأحداث هذا النبأ العظيم .

كما أن النبأ العظيم الثانى وهو نبأ البعث له صلة قوية بأحداث النبأ العظيم الأول ، ذلك لأن يوم البعث هو يوم الجزاء حيث يحاسب فيه العباد على معاصيهم فى الدنيا لأنهم لم يتفطنوا لكيد الشيطان وعداوته وأعرضوا عن تدبر أحداث النبأ العظيم الأول ، ولذلك فإن دخولهم النار هو تحقيق للوعد الذى ذكره الله تعالى فى النبأ العظيم الأول بقوله ﴿قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين﴾ ٨٤ ، ٨٥ : ص .

٥ - إن علم الله سابق لقضاء الله وقدره ولذلك فإن الله عز وجل يقدر مقادير العباد عن علم سابق وحكمه ، يقول تعالى ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ١٢ — فصلت ، وبناء على علم الله الأزلى السابق فإنه تعالى خلق القلم أولاً ثم أمره أن يكتب مقادير كل شىء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فكل شىء مدون بناء على علم الله السابق سواء كانت أقداراً اختيارية للعباد دخل فيها وهى المعاصى التى علم الله أنهم سيرتكبونها بإرادتهم واختيارهم الحر ، أو أقداراً إجبارية ليس للعباد دخل فيها .

والله عز وجل عليم حكيم قدير محيط بكل شىء فهو عندما كتب مقادير كل شىء أحدث إنسجماً بين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية فلا تناقض ولا تعارض بينهما ، بل جعل بعض الأقدار الإجبارية التى لا خيار للعباد فيها مترتبة على الأقدار الاختيارية التى للعباد دخل فيها دون أن يؤثر ذلك على اختيار العباد .

فالإنسجام بين هذين النوعين من الأقدار محكوم ومقيد بأمر قضاها الله وكتبها على نفسه مثل قوله تعالى في الحديث القدسي « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » رواه مسلم ، وقول النبي ﷺ « قال الله عز وجل سبقت رحمتي غضبي » رواه مسلم ، ومصدق ذلك قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ ٥٤ — الأنعام ، وقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٥٦ — الأعراف ، فالله عز وجل لا يقدر قدراً إجبارياً يلزم العبد على المعصية أو يدخله حهنم ظلماً فقد قال تعالى عن يوم القيامة ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ٥٤ — يس ، بل على العكس من ذلك فإنه يرحم عباده المتقين ويعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم .

وتوضيحا لما سبق أن ذكرناه نقول بأن الله عز وجل علم قبل أن يكتب المقادير بأن إبليس يضمّر في نفسه الفسوق والكبر وأنه سيعصيه مختاراً ولن يسجد لآدم ولن يقبل أن يكون آدم مكرماً ومفضلاً عليه ، وأن آدم سيختار المعصية على الطاعة وبناء على هذا العلم الإلهي كتب الله نوعين من الأقدار قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، أقداراً إختيارية للعباد دخل فيها ، وأقداراً إجبارية لاختيار للعباد فيها .

كتب الله سبحانه وتعالى أن يخلق آدم ويأمر إبليس والملائكة بالسجود له وهذا قدر إجباري لاختيار لهم في ذلك ، وكتب معها أن يعصيه إبليس مختاراً وهذا قدر اختياري من فعل إبليس أذن الله أن يقع في ملكه ، ورتب على ذلك أن يكون رجيماً ملعوناً أى مستوجباً لدخول النار خالداً مخلداً فيها وهذا هو قدر إبليس الإجباري لا يملك دفعه ولا خيار له في ذلك ، كل ما في الأمر أن الله أمهله مدة الحياة الدنيا ليمتنح به إيمان ذرية آدم وأجل عذابه المحتوم إلى يوم الجزاء وهو اليوم الذي خصصه الله لمعاقبة من عصاه .

وبالنسبة لآدم عليه السلام فإن الله عز وجل كتب أنه سيعصيه مختاراً وأنه سيتوب إليه ويستغفره وهذا قدر إختياري من فعل آدم أذن الله أن يقع في

ملكه ، وبرغم أن الله عز وجل عفا عنه ورفع عنه عقوبة هذه المعصية يوم القيامة إلا أنه رتب على هذه المعصية مجموعة أقدار إجبارية لا حيلة لآدم فيها وهي خروجه من الجنة وهبوطه وزوجه إلى الأرض مع ابليس اللعين وما يتبع ذلك من إرسال الرسل والأنبياء بالرسالات السماوية إلى ذريته من بعده ليشهد الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر ولتحن إبليس إيمان ذرية آدم حتى تقوم الساعة فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ، ومن كفر أو خفت موازينه من كثرة المعاصي دخل النار .

مما سبق نجد أن الله عز وجل حينما قدر مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كان تقديره عن علم سابق وليس تقدير جزائي أو عشوائي مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ، ونتيجة لعلمه السابق المحيط فإن أقدار العباد الإختيارية والإجبارية جاءت منسجمة لا تناقض ولا تعارض فيها ولا يتسبب عنها أدنى ظلم للعباد .

والعبد يعد مسئولاً عن معصيته ولكنه ليس مسئولاً مسئولية مباشرة عما يترتب على هذه المعصية من أقدار إجبارية لأنه لم يقصدها وليس له حيلة فيها ولنضرب مثلاً لذلك لو اقتحم لص منزلاً بقصد السرقة فرأته ربة المنزل أو الخادمة فألقت بنفسها من الشرفة فماتت ، وسواء كان وقوعها بسبب الخوف عن خطأ منها أو عن تعمد فإن اللص لم يقصد أن يتسبب في قتلها ولكن قدر لها أن تصاب بقدرها الإجباري الذي كتبه الله عليها وهو الموت ، فاللص يحاسبه ربه على جريمة السرقة واقتحام المنازل ولكنه ليس مسئولاً مسئولية مباشرة عن حادثة الموت ، أما قول النبي ﷺ « من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم ، فإنه عند تشابه نوعية الجريمة بين مرتكبها وبين من قلصده ، فمثلاً لو أن هذا اللص اقتدى به مجموعة من صبيانهم ففعلوا مثل فعلته فاقتحموا المنازل وسرقوها لتحمل هذا اللص وزره ووزرهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء ، وقايل ابن آدم عليه السلام كان أول من سن القتل لأنه ارتكب أول جريمة قتل على وجه الأرض ولذلك فانه يتحمل وزر كل من قلده وقتل نفساً بريئة بغير حق حتى تقوم الساعة مصداقاً لقول النبي ﷺ « ليس

من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل « متفق عليه .

مما سبق يتضح لنا أن آدم عليه السلام بعد مسؤولاً عن قدره الاختياري الذي أصابه من جراء معصيته لربه ولكنه ليس مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن الأقدار الإجبارية التي ترتبت على معصيته والتي حددت مصير ذريته من بعده مثل خروجه وزوجه من الجنة وهبوطهما مع إبليس إلى الأرض وما تبع ذلك من إنزال الكتب السماوية وإرسال الرسل وانقسام ذريته إلى فريقين أهل الإيمان والعمل الصالح وهم أهل الجنة ، وأهل الكفر والضلال والمعاصي وهم أهل النار .

من هذا المنطلق يتبين لنا سبب ظهور آدم على موسى بالحجة كما ورد ذلك في الأحاديث النبوية التي رواها الإمام مسلم بشأن حجاج آدم وموسى عليهما السلام حيث أن موسى عليه السلام بدلاً من أن يلومه على معصيته لربه وهي من الأمور التي تمت باختياره ولا يستطيع نفى مسؤوليته عنها ، بدلاً من ذلك فقد حمّله مسؤولية إخراج ذريته من الجنة وإهباطهم إلى الأرض وما ترتب على ذلك من تعرضهم لإغواء الشيطان وما أصيبوا به من الخيبة ، وهذه جميعها تعد أقداراً إجبارية لاحيلة لآدم فيها ولا اختيار ولا يتحمل مسؤوليتها برغم أنها جاءت مترتبة على معصيته ولكنها إرادة الله لا اختيار للعبد فيها .

قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة » ، وفي رواية ثانية « أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة » ، وفي رواية ثالثة « أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض » ، وفي رواية رابعة « أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة » فقال له آدم « أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ثم تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق » قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » أي غلبه بالحجة وظهر عليه بها . والأمر الذي قصد آدم عليه السلام أنه قدر عليه قبل أن يخلق هو إخراجهم من الجنة وإهباطهم إلى الأرض مشيراً بذلك إلى قوله تعالى للملائكة قبل خلقه ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ٣٠ — البقرة .

وما دامت مشيئة الله. قضت قبل خلق آدم بأن يجعله خليفة في الأرض وهذا يعنى أن يكون ساكناً لها فإن أمر إخراجه من الجنة وإهباطه إلى الأرض هو مصير مقدر ومحتوم لا يملك آدم تغييره ، والدليل على ذلك قوله تعالى عن علاقة الإنسان بالأرض التى خلق منها ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ٥٥ - طه ، فهذه إرادة الله وقدره لاختيار للعبد في ذلك .

هناك نوعان من الأقدار الإجبارية لاختيار للعبد فيها ، النوع الأول هى الأقدار المترتبة على أفعال العباد لايسأل العبد عنها وإنما يسأل عن أفعاله فقط ومن الأمثلة على ذلك خروج آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض ودخول فريق من ذريته إلى الجنة ودخول الفريق الآخر إلى النار ، فالعباد لا يسألون لماذا دخلتم النار ؟ ولكن يسألون ما الذى أدخلكم النار ؟ ، إجابة السؤال الأخير أن الكفر والمعاصي أدخلتهم النار ، أما إجابة السؤال الأول فهى أنهم دخلوا النار لأن الله جعلها عقوبة لمن كفر به وعصاه ولو شاء الله أن يعاقبهم بعقوبة غيرها لفعل ، فتحديد العقوبة يعود لمشيئة الله لا دخل ولا خيار للعبد فيها وإنما يسأل العبد فقط عن معاصيه التى أوردته موارد التهلكة لأنها قدر إختيارى فعلها بمحض حريته واختياره ، ودليل ذلك من القرآن الكريم أن الله عز وجل لم يقل (لماذا سلكتكم سقر) لأن إجابتها أنهم سلكوا سقر لأن الله عز وجل أرادها عقوبة لهم لاختيار لهم في ذلك ، ولكن الله تعالى قال ﴿ ما سلكتكم في سقر ﴾ أى ما الذى سلكتكم في سقر ؟ فقالوا إن كفرنا ومعاصينا هى التى سلكتنا في سقر ﴿ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ، واليقين هو المصير الذى حدده الله لهم مشتملاً على العقوبة التى حددها لهم لاختيار لهم في ذلك وهو البعث والحشر ومعاناة سقر ودخولها فلم تنقذهم شفاعة الشافعين من أن يلاقوا هذا العذاب الذى قدره الله لهم والمترب على كفرهم ومعاصيهم لأنهم إن ماتوا على الكفر والمعصية صارت مسألة عذابهم في نار جهنم قدر إجبارى لا حيلة لهم في دفعه .

أما النوع الثانى من الأقدار الإجبارية فهى الأقدار التى لا تترتب على أفعال العباد مثل خلق الجنة وخلق النار فهى مسألة كونية كخلق السموات

والأرض والشمس والقمر تتم بمقتضى إرادة الله ومشيئته لا اختيار للعباد فى ذلك
وهى منفصلة ومستقلة تماماً عن أفعال العباد .

نخلص من ذلك أن دخول العباد الجنة أو النار هى أقدار إجبارية مترتبة على
أفعال العباد لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه ، أما خلق الجنة والنار فإنها أقدار
إجبارية ليست مترتبة على أفعال العباد بل هى مسألة كونية كخلق الكرسي
والعرش والقلم والسموات والأرض والملائكة والإنس والجن وجميع المخلوقات .

الفصل الثالث

الجبر والإختيار

الجبر يقصد به الأفعال التي لم تصدر عن الإنسان أو التي لا إختيار له فيها ، أما الإختيار فيقصد به الأفعال التي صدرت عن الإنسان باختياره ، فمثلاً الأفعال الصادرة عن الإنسان المكروه أو المجنون أو النائم أو السكران لا إختيار له فيها ، ولو أن السكران يحاسب على أفعاله المحرمة التي ارتكبها بنفسه ليس لأنها من إختياره ولكن لأنها مترتبة على فعل تم باختياره وهو تناول المسكر .

وإذا أذن الله لهذين النوعين من الأفعال الإجبارية والإختيارية أن يحدثا انقلبت لأفعال إلى أقدار وأطلق على النوع الأول أقداراً إجبارية وعلى النوع الثاني أقداراً إختيارية وكلاهما حتمى الحدوث وواقع لا محاله لا يملك الإنسان منعه ولا دفعه .

أنواع الأقدار :

تنقسم الأقدار من حيث علاقتها بالإنسان إلى ثلاثة أنواع :

١ - أقدار إختيارية :

وهي عبارة عن علم ومشئعة ، علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ، ومشئعة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد ويبرز إلى حيز الوجود .

ومن الأمثلة على هذه الأقدار الإختيارية التي تكتب على العبد ما يرتكبه من جرائم الشرك أو القتل أو السرقة أو الزنى أو غير ذلك من أبواب الشر ، وكذلك ما يفعله من أبواب الخير كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصلة الرحم والإحسان إلى عباد الله .

ومما لا شك فيه أن العبد مسئول عن هذه الأقدار الإختيارية التي كتبت عليه ويحاسب عليها يوم القيامة لأنه هو الذي رسم لنفسه هذه الأقدار بما قدمت يده من أفعال تمت بمحض إرادته واختياره الحر ، كما أنه يعاقب على ما لم يأتيه من الأفعال .

كتركه ما أوجبه الله عليه ، ويثاب على ما لم يأتيه من الأفعال كتركه ما حرمه الله عليه فمصير الإنسان موكول باختياره وفق مشيئة الله ، فإما أن يختار من الأعمال ما يوصله إلى الجنة والكرامة ، وإما أن يختار من الأعمال ما يوصله إلى العذاب والمهانة ، فكل إنسان يحمل تبعه مصيره ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها ، فإذا كان يوم القيامة حوسب العبد على ما قدمت يده ووجد ذلك مكتوباً ومدوناً في كتاب قد أحصى عليه كل شيء ، وفوق ذلك كله وقبل ذلك كله فإن ما اختاره من الأعمال مقدر في علم الله ومدون قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما جاء في السنة النبوية الصحيحة . يقول تعالى عن كتاب العبد يوم القيامة ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ١٣ ، ١٤ — الإسراء . ويقول تعالى ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ٤٩ — الكهف .

ويقول تعالى في الحديث القدسي « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

حينئذ يعلم الإنسان أن نفسه مرهونة ومأخوذة بما كسبت من الأعمال فتوزن حسناته وسيئاته والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فهو من أصحاب اليمين تتحدر نفسه من الرهن ويدخل الجنة خالداً مخلداً فيها برحمة الله وفضله لا يخرج منها أبداً . وينعم بحياة سعيدة لا يشقى بعدها أبداً .

ومن خفت موازينه فإن نفسه تظل مرهونة فيقتص الله منه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر فيهبى في نار حامية لا يموت فيها ولا يحيا .

يقول تعالى ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ﴾ ٣٨ ، ٣٩ — المدثر .

٢ - أقدار إجبارية مترتبة على أفعال العباد :

مثل دخولهم الجنة وتحديد درجاتهم فيها أو دخولهم النار وتحديد درجاتهم فيها ،

وهي أمور قدرها الله بمشيئته وحده وفقاً لما علمه منذ الأزل من إيمان عبده أو كفره وما سيأتي به من الأعمال في دار الدنيا .

والعبد لا يُسأل عن هذه الأقدار لأنها لم تتم بمشيئته ولا اختياره ولا حيلة له في دفع هذا القدر عنه وإنما هذه الأقدار من فعل الله وبمشيئته وحده لأنه هو الذى له حق تحديد العقوبة على من كفر به وعصاه ولو شاء الله لاختار لهم عقوبة أخرى غير دخول النار ، كما أنه هو وحده الذى له حق تحديد الأجر لمن آمن به وعمل صالحاً ولو شاء لاختار لهم أجراً وثوباً آخر غير دخول الجنة .

إن أهل سقر لم يسألوا « لماذا سلكنم سقر ؟ » لأن دخولهم سقر تم بمشيئة الله وحده الذى اختار لهم هذه العقوبة فهم من الأقدار الإجبارية التى لا حيلة لهم في دفعها ، ولكنهم سئلوا عن كفرهم ومعاصيهم التى أدت بهم إلى دخول سقر وهذا هو معنى قوله تعالى « ما سلكنكم في سقر » فجاءت اجابتهم متضمنة ذكر ما كانوا عليه من الكفر وما قدموه من المعاصي .

والعبد لا يعرف المصير الذى قدره الله له ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه لتتداركه رحمة الله وفضله فإذا التمس الوسيلة التى أرادها الله منه وهى الإيمان والعمل الصالح بلغ مصيره الذى قدره الله له وهو دخول الجنة ، أما إذا التمس الوسيلة التى نهاه الله عنها وهى الكفر والفسوق والعصيان بلغ مصيره الذى قدره الله وهو دخول جهنم أعاذنا الله منها .

إن قدر الله في عبده يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه لأن الله قد خلق له القدرة على توجيه نفسه إلى الخير أو الشر .

علينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كُلفنا به وأن ندع الله غيب مشيئته فينا ، ومن الأمثلة الأخرى للأقدار الإجبارية المترتبة على أفعال العباد المصائب المترتبة على معاصي العباد وهى التى أشار إليها الله عز وجل بقوله ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ٧٩ — النساء ، وقوله ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ — الروم ، وقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ ٣٠ — الشورى ، وقول النبي ﷺ « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وكذلك الأمراض التى تصيبه بسبب إهماله أو تعاطيه ما يضره

كالتدخين والمسكرات والمخدرات أو بسبب ممارسته للرزيلة حيث يصاب بالأمراض الجنسية الفتاكة . وكذلك الرزق الذى كتبه الله لمن أخذ بأسبابه فعمل وكدح واجتهد ولم يتكاسل أو يتقاعس عن سعى لتحصيل لقمة العيش فالعبد عليه أن يسعى ويعمل لأن سنة الله قضت فى أغلب الأحيان ألا يعطى الرزق إلا لمن سعى وأخذ بالأسباب مع إيماننا الكامل بأن الله هو الرازق وأنه قدر للإنسان رزقه منذ ولادته حتى مماته فهو مدركه لا محاله ولكنه حينما قدر للعباد أرزاقهم كان عليمًا حكيمًا .

وبرغم أن العمل يعد وسيلة لتحصيل الرزق إلا أن هذا الرزق الذى يجنيه العبد من عمله متفاوت وفقاً لما قدره الله له ، فقد يكون وفيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون معدوماً ، أى أن العمل قد يثمر الكثير أو القليل وقد لا يثمر وفقاً لما قدره الله لعبده من الرزق .

وكما أسلفنا فإن العباد يسألون فقط عما اعتقدوه من الإيمان أو الكفر وما قدموه من أفعال ونوايا صالحة أو فاسدة ، ولكنهم لا يسألون عما ترتب على أفعالهم ونواياهم وعقائدهم من أقدار إجبارية كتبها الله عليهم ، إلا أن يسخطوا على ما قدره الله عليهم . أو ينكروه فيسخط الله عليهم ويعذبهم .

٣ - أقدار إجبارية ليست مترتبة على أفعال العباد :

وهى تنقسم من حيث ارتباطها بالإنسان إلى ثلاثة أصناف :
الصنف الأول يتعلق بذاتية الكون كخلق السموات والأرض والجنة والنار وجميع المخلوقات ونزول الغيث وشروق الشمس شرقاً وغروبها غرباً وتعاقب الليل مع النهار والصيف مع الشتاء والشمس مع القمر وطبيعة الأرض وما تحدث لها من هزات وزلازل وبراكين وفيضانات وغير ذلك مما يتعذر حصوه .

والصنف الثانى يتعلق بذاتية الإنسان كميلاده وعمره ومماته وطبيعة جسمه حجماً ولوناً ومنظراً وتكويناً وطبيعة نسله عدداً ونوعاً .

والصنف الثالث يتعلق بالمستجدات التى تطرأ على الإنسان كالنعم والأرزاق التى تساق له من حيث لا يدري وهى ليست من كسبه ولا سعيه وكذلك الأمراض والمصائب والأضرار التى لحقت به على سبيل الإبتلاء ولم يكن سبباً فيها ولم ترتب على

معاصيه كالتي تصيب الأنبياء والمقربين والأخيار .

والله جل شأنه لا يسأل عباده عن هذه الأمور القدرية لأنها خارجة عن إرادتهم واختيارهم وليست من أفعالهم ولا مترتبة على أفعالهم بل هي من فعل الله وحده وإنما يسألون عن مواقفهم من هذه الأمور فإذا كفروا وجحدوا بنعمة ربهم أو سخطوا على قضاء الله وقدره أو أنكروا القضاء والقدر ولم يؤمنوا به استحقوا عذاب الله وسخطه .

لماذا قدر الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق الخلق ؟

ولماذا كانت الأقدار جميعها مسبقة بمشيئة الله ؟

١ - لأن ذلك يعد مظهراً من مظاهر شمول علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونفاذ إرادته فجميعها صفات إلهية قد أحاطت بالكون إحاطة كاملة ووسعت كل شيء جملة على مستوى الوجود كله ، وتفصيلاً على مستوى كل مخلوق على حده .

وإن تدخل مشيئة الله في جميع أقدار الناس الإيجابية والاختيارية وأقدار سائر المخلوقات يعد حقاً للإله الخالق لا ينازعه فيه أحد ولا يشاركه في ملكه أحد فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل ومن سواه يُسألون .

٢ - لأن الله عز وجل بعد أن خلق الكون لم يتركه يدبر أمره بنفسه إذن لفست السموات والأرض ومن فيهن ولهلك كل شيء ، فهو سبحانه الحي القيوم ، وصفة (القيوم) تعني قيامه على كل مخلوق ، كما تعني قيام كل مخلوق به فلا قيام لشيء إلا مرتكناً إلى وجود الخالق وإرادته وتديرو ، وهو سبحانه الصمد أى المقصود بتلبية حاجات المخلوقات وهو الذى يقضى في كل أمر فلا يقضى أمر إلا بإذنه .

يقول تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ٤١ فاطر .

ويقول تعالى ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ ٦٥ - الحج .
إن الله هو الغنى الحميد فهو غنى في ذاته أما الكون فلا غنى له عن الله بل هو أحوج ما يكون إليه وهذا الاحتياج هو شرط لبقائه وصلاحه .

من أجل ذلك كانت مقادير ومقالات الأمور بيدي الله يصرفها كيف يشاء ويدبر

الأمر كله ، لازاد لأمره ولا معقب لحكمه .

إن كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود مخلوقة بقدر ومصرفة بقصد ومدبرة بحكمة فلا عبث ولا مصادفة ولا عشوائية .

يقول الشهيد سيد قطب (كل شيء ، كل صغير وكل كبير ، كل ناطق وكل صامت ، كل متحرك وكل ساكن ، كل ماضى وكل حاضر ، كل معلوم وكل مجهول ، كل شيء خلق بقدر ، قدر يحدد حقيقته ويحدد صفته ويحدد مقداره ويحدد زمانه ويحدد مكانه ويحدد إرتباطه بسائر ما حوله من أشياء وتأثيره في كيان هذا الوجود ، هذا الوجود المتزامى الحدود منوط بقدر الله ، متعلق بمشيئته وهو قائم بتدبيره ، هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ويتناول كل فرد فيه على حده ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة ويعطى كل شيء خلقه كما يعطيه وظيفته ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته ، هذا التدبير الذى يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة وما يكمن من حبة في ظلمات الأرض وكل رطب وكل يابس ، يتبع الأسماك في بحارها والديدان في مسابرها والحشرات في مخابئها والوحوش في أوكارها والطيور في أعشاشها وكل بيضة وكل فرخ وكل جناح وكل ريشة وكل خلية في جسم حى ، وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ولا يعزب عن علمه ظاهر ولا خاف) .

يقول تعالى عن نفسه ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ ٢٩ — الرحمن ، أى يفتقر إليه تعالى كل من في السموات والأرض ويسألونه العون والرزق وهو سبحانه وتعالى في كل ساعة وفي كل لحظة في شأن من شئون الخلق .

٣ — إن أقدار المخلوقات لابد أن تكون مسبوقة بمشيئة الله لأن مشيئة الله ضرورية للمحافظة على توازن نظام الكون وتوازن أحداثه وأحداث العباد فلو ترك الأمر لاختيار العباد فقط لاختل النظام وتعاضت المصالح وتضاربت الأحداث وما أمكن ربط أحداث الكون بعضها ببعض لأن في اختيار العبد الواحد قد تتحدد مصائر أناس آخرين .

كما أن مشيئة الله تعالى ضرورية لحدوث الإنسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الاثنين ، وبحيث

يتعانقان ويتلاقيان معاً في النهاية في خط واحد ومفهوم واحد ، وهذا الإنسجام أمر لا بد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس .

ولما كان الله عز وجل قد أمد البشر بالإرادة والقدرة على الاختيار بين المتضادين فإنه من المتوقع بديهية أن ينعكس الاختيار بين شخصين بسبب تعارض المصالح فيما بينهما فيترب على ذلك تصادم إرادة أحدهما بإرادة الآخر ، فقد يريد أحدهما أن يحرك شيئاً إلى اليمين بينما يريد الآخر في نفس الوقت أن يحركه إلى اليسار ومن المحال الجمع بين المتضادين في وقت واحد فإما أن يتحرك يمينا وإما أن يتحرك يساراً وإما أن يظل ساكناً بلا حراك ، من أجل ذلك كان لابد من تدخل المشيئة الإلهية لتأذن لأحد الاختيارين أن يحدث ولا تأذن للآخر أو لا تأذن لهما معاً ، فمشيئة الله ضرورية حتى لا يحدث التعارض والتصادم بين مشيئات البشر واختياراتهم ، ولا تعد مشيئة الإنسان نافذة إلا إذا ساندتها مشيئة الله وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ٢٩ — التكويد ، وقوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ٢٣ — الكهف .

إن المشيئة الإلهية القادرة على التحكم في الأحداث والسيطرة على الكون بأكمه هي منتهى القدرة والحكمة والشمول والإحاطة .

مراحل تقسيم القدر زمنياً :

أولاً : التقدير الأزلي الأول : وهو التقدير العام لجميع الأشياء والأحداث والأفعال في علم الله الأزلي ومشيئته قبل كتابتها وتدوينها وقبل أن يخلق الله الكون ، يقول تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ١٢ — فصلت .

ثانياً : التقدير العام المدون قبل خلق الكون : وهي مرحلة تدوين وكتابة مقادير جميع الأشياء والأحداث والأفعال التي علمها الله وشاءها قبل أن يخلق الكون .

قال رسول الله ﷺ « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرضه على الماء » رواه الترمذى ومسلم .

وفي رواية « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم .

وقال رسول الله ﷺ « أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة » رواه مسلم .

وفي رواية « أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » رواه الترمذى وأبو داود .

ثالثاً : التقدير العمري الخاص بكل إنسان على حده عند خلقه في بطن أمه : وهو تقدير لكل ما يجري على العبد منذ ولادته حتى مماته شاملاً رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، وهو جزء من التقدير العام السابق ذكره لا يخرج عنه ولا يتعارض معه ولا يزيد عليه بشيء جديد بل هو قديم في علم الله ومطابق لما سبق تدوينه . قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

رابعاً : التقدير السنوي لما سيكون وما سيقع من الأشياء والاحداث والأفعال خلال سنة هجرية كاملة : ففي ليلة القدر يكتب من أم الكتاب المدون به التقدير العام ومقادير كل شيء يكتب منه تقدير ما سيكون خلال سنة هجرية كاملة .

يقول تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ ٣ - ٥ : الدخان .

ويقول تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ١ القدر ، ففهم من مجموع هذه الآيات الكريمة أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما « يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال : يحج فلان

وفلان ويحج فلان » .

وقال الحسن ومجاهد « يرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة » .

خامساً : التقدير اليومي لما سيكون وما سيقع من الأشياء والأحداث والأفعال :

قال تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ ٢٩ — الرحمن ، أخرج ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال عن معنى هذه الآية الكريمة « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » .

كما أخرج ابن جرير أن ابن عباس رضى الله عنهما قال عن معنى هذه الآية الكريمة « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق في كل نظرة ، ويحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء » .

وهذا التقدير اليومي جزء من التقدير العام لا يخرج عنه ولا يتعارض معه ولا يزيد عليه بشيء جديد بل قديم في علم الله ومطابق لما سبق تدوينه .

قال المفسرون عن هذا التقدير اليومي الوارد في قوله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ هي شئون يبيدها ولا يبتديها أى يظهرها للخلق ولا ينشئها من جديد لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ويغنى فقيراً .

وبذلك يكون التقدير اليومي هو المرحلة التى يدخل فيها القدر المكتوب إلى حيز التنفيذ أى الذى عنده يقع القدر ويتحقق

من أنكر القدر فقد كفر :

١ - لقد سُمى الله تبارك وتعالى الذين أنكروا القدر (كفاراً) لأنهم أرجعوا الموت والقتل إلى أسبابهما ولم يرجعوهما إلى الأقدار التى كتبها الله على عباده قبل أن يخلقهم ، ولقد حذر الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى القول والاعتقاد فيكفرون

مثلهم .

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ ١٥٦ - آل عمران .

٢ - كما سُمى الله منكراً القدر (مجرمين) وتوعدهم بالعذاب يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ٤٧ - ٤٩ القمر .

٣ - كما سُمّاهم رسول الله ﷺ (خصماء الله) ، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن أسقف نجران جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا محمد تزعم أن المعاصي بقدر وليس كذلك فقال ﷺ : أنتم خصماء الله » . كما أخرج ابن مردويه وذكره السيوطي في (الدر المنثور) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة أمر منادياً فنادى نداء يسمعه الأولون والآخرين : أين خصماء الله ؟ فتقوم القدرية فيؤمر بهم إلى النار » ، والقدرية هم الذين أنكروا القدر .

٤ - كما سُمّاهم رسول الله ﷺ « مجوس هذه الأمة » ، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ، كما أخرج أحمد في مسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ « لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف » ، ومعنى (أنف) أى مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه .

قال الإمام النووي عند شرحه لصحيح الإمام مسلم (واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى ، وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنها مستأنفة العلم أى إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله ، سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً ، وسميت

هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر ، وقد انقضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن يقولون الخير من الله والشر من غيره « أى أنهم ينكرون القدر إنكاراً جزئياً وهو ما يتعلق بالشر » تعالى الله عن قولهم ، ولقد جعلهم رسول الله ﷺ مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس حيث قال المجوس بالأصلين النور والظلمة. يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعاً لا يكون شئ منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً ومضافان إلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً) .

ه - لقد بين رسول الله ﷺ بأن الإيمان المنافي للكفر يتضمن الإيمان بالقدر خيره وشره وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم من حديث جبريل عليه السلام وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان فقال له رسول الله ﷺ « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، فقال جبريل عليه السلام « صدقت » ، ولما انصرف جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » .

ومصدقا لهذا الحديث ما أخرجه مسلم عن ابن عمر قوله « والذي نفسى بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » .

ولقد أجمع أهل العلم على تكفير الذين ينكرون القدر ، وهم الفلاسفة في الحقيقة .

الرد على من سخط على قضاء الله وقدره :

يقول الدكتور مصطفى محمود في إحدى مؤلفاته رداً على الذين يسخطون ويتناولون على قضاء الله وقدره ولا يعجبهم أن تتدخل مشيئته النافذة في تحديد أقدار العباد الإجبرية ويتمونه في صفاته العليا سبحانه الله وتعالى عما يصفون :
 (يقولون ساخرين إذا كان الإله كامل ورحمن ورحيم وكريم ورؤوف فلماذا خلق كل

هذه الشرور في العالم المرض والشيخوخة والموت والزلازل والبركان والميكروب والسم والحر والزمهرير وآلام السرطان التي لا تعفى الطفل الوليد ولا الشيخ الطاعن ؟ إذا كان الله محبة وجمالاً وخيراً فكيف يخلق الكراهية والقبح والشر ؟

ونحن نقول أن الله كله رحمة وكله خير وأنه لم يأمر بالشر ولكنه سمح به لحكمة بالغة ولكنه مع ذلك من رحمته الواسعة جعل الخير هو القاعدة السائدة في الكون والشر هو الإستثناء ، فالصحة هي القاعدة والمرض استثناء فنحن نقضى معظم سنوات عمرنا في صحة ولا يزورنا المرض إلا أياماً قليلة ، وبالمثل الزلازل هي في مجملها بضع دقائق في عمر الكرة الأرضية الذي يحصى بآلاف أو ملايين السنين وكذلك البراكين وكذلك فإن الحروب هي تشنجات قصيرة في حياة الأمم بين فترات سلام طويلة ممتدة .

ثم إننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الشر نفسه له وجه خير فالمرض يخلف وقاية ، والألم يرى الصلابة وقوة التحمل ، والزلازل تنفس عن الضغط المكبوت في داخل الكرة الأرضية وتحمي القشرة الأرضية من الانفجار وتعيد الجبال إلى مكانها كأحزمة وثقالات تثبت القشرة الأرضية في مكانها ، والبراكين تنفث المعادن والثروات الخبيثة الباطنة وتكسو الأرض بترية بركانية خصبة ، والحروب تدمج الأمم وتلقح بينها وتجمعها في كتل وأحلاف ثم في عصبة أمم ثم في مجلس أمن وأعظم الاختراعات خرجت أثناء الحروب كالبنسلين والذرة والصواريخ والطائرات النفاثة كلها خرجت أثناء الحروب ، كما أن المرض يخلف مناعة والميكروب نصنع منه المصل .

ولو لا أن أجدادنا ماتوا لضاقت علينا الأرض واستحالت المعيشة وانتشرت المجاعة ولما كنا الآن في مناصبنا التي كان يشغلها قبلنا أناس آخرون . والشر في الكون كالظل في الصورة إذا اقتربت منه خيل إليك أنه عيب ونقص في الصورة ولكن إذا ابتعدت ونظرت إلى الصورة ككل نظرة شاملة إكتشفت أنه ضرورى ولا غنى عنه وأنه يؤدي وظيفة جمالية في البناء العام للصورة .

وهل كان يمكننا أن نعرف الصحة لولا المرض ؟ .

إن الصحة تظل تاجاً على رؤوسنا لا نراه ولا نعرفه إلا حينما نمرض .

وبالمثل ما كان ممكناً أن نعرف الجمال لولا القبح ولا الوضع الطبيعي لولا الوضع الشاذ، ولهذا يقول الإمام أبو حامد الغزالي إن نقص الكون عند من يرون ذلك هو عين كماله مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته ولو أنه استقام لما رمى النبال . وهناك وظيفة أخرى للمشقات والآلام وهى أنها تميز بين الناس وتكشف معادهم وتعرف فى أوقات البشة الصديق من العدو ودرجة إخلاص الصديق ، وهى الامتحان الذى نعرف به أنفسنا والابتلاء الذى تتحدد به مراتبنا عند الله .

ثم إن الدنيا كلها ليست سوى فصل واحد من رواية سوف تتعدد فصولها فالموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها ولا يجوز أن نحكم على مسرحية من فصل واحد ولا أن نرفض كتاباً لأن الصفحة الأولى لم تعجبنا ، الحكم هنا ناقص ولا يمكن استطلاع الحكمة إلا فى آخر المطاف .

ثم ما هو البديل الذى يتصوره السائلون الساخرون ؟ هل يريد الإنسان أن يعيش حياة بلا موت ، بلا مرض ، بلا شيخوخة ، بلا نقص ، بلا عجز ، بلا قيود ، بلا أحزان ، بلا آلام ؟! ، هل يطلب كمالاً مطلقاً ؟ إن الكمال المطلق لله وحده . معنى هذا أن الإنسان لن يرضيه إلا أن يكون هو الله ذاته وهو التطاول بعينه . ودعونا نسخر منهم بدورنا ممن لا يعجبهم شيء .

هؤلاء الذين يريدونها جنة ، ماذا فعلوا ليستحقونها جنة ؟ يكفرون بربهم ويتكبرون لنعمائه ويبارزونهم بالمعاصى ثم يشترطون عليه ألا يصيبهم بأذى ولا مكروه .

إن أجدادنا السابقين أكثر ذكاءً من هؤلاء المعاصرين حينما قالوا « خيرٌ من الله شرٌّ من نفوسنا » ، ومعنى هذا أن الله يمدنا بالخير ولكننا نقلب الخير شرّاً والله يعطينا النعمة ولكننا نقلبها إلى نقمة .

إنها كلمات قليلة ولكنها تلخيص أمين للمشكلة كلها فالله أرسل الرياح وأجرى النهر ولكن ريان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب القدر ، وهل ظلمه الله ؟ الله أرسل الرياح رخاء وأجرى النهر خيراً ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذى قلب هذا الخير شرّاً فما أصدقها من كلمات جميلة طيبة « خير من الله شرٌّ من نفوسنا » .

والدكتور مصطفى محمود لم يقصد من وراء هذه العبارة الأخيرة أن الله قدر الخير ولم يقدر الشر وأن الخير من عند الله والشر من عند غيره كما يقول متأخري القدرية ، وإنما قصد نفس مادل عليه قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ٧٩ — النساء ، وهذا لا يتعارض مع كونه تعالى خالق للخير والشر معاً ومريداً لهما فلا يقع شيء منهما في كونه إلا بأذنه ومشيئته وكلاهما قديم في علم الله قدره الله قبل أن يخلق الخلق ، فالخير والشر مضافان إلى الله تعالى خلقاً وإيجاداً ومضافان إلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً .

يقول تعالى ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ٧٨ — النساء .

إن الدكتور مصطفى محمود عندما استشهد بقول أجدادنا السابقين « خير من الله شر من نفوسنا » إنما أراد بذلك أن الله أمد البشرية بالخير ولكنهم قلبوا الخير شراً ، إن أيادي البشر تتدخل في الكون فتفسده فالمصانع تلقى بأدخنتها ومخلفاتها في الجو والبحار فتلوثهما ، ومصانع ومستودعات الطاقة تنفجر أو يحدث لها تسرب فينبعث الإشعاع الذري فيلوث كل شيء وينذر بالخطر ، والبتروك يتم تسريبه عمداً أو خطأ في مياه البحار فينجم عن ذلك مخاطر وأضرار على الأسماك وسائر الحيوانات البحرية والبرية والطيور فيتعرض الكثير منها للموت والهلاك ويلحق الضرر بمصالح الناس ، والنفائات المشعة تدفن في باطن الأرض فتتعرض للتلوث البيئي ويتضرر من يعيشون فوقها ، كما أدت التجارب والتفاعلات الذرية والنووية والكيمائية إلى إفساد وتمزق طبقة الأوزون التي تقلل من حرارة الشمس وتحمي الغلاف الجوي للكرة الأرضية من الآثار السيئة لأشعة الشمس فأصبحت البشرية بذلك عرضة للمخاطر والأضرار ، كل ذلك وغيره يؤدي إلى تلوث الهواء والبحار والأنهار واليابس ويهدد الحياة الفطرية من حيوانات ونباتات بالهلاك أو الانقراض بل ويهدد الإنسان نفسه ، وكم من حيوانات بحرية أو برية قد انقرضت ، وكم من أشجار وغابات قد اقتلعت ، وكم من أراضي زراعية خضراء قد أهملت وتحولت إلى أراضي بور قاحلة . ومع التقدم العلمي تحول الهدوء الذي أودعه الله هذه الطبيعة إلى صخب وضوضاء وارتفعت نسبته إلى درجة تهدد البشرية وتضر بأجهزة الجسم العصبية وغير العصبية وتكسب

الإنسان نوعاً من القلق والتورب وغيرها من المتاعب .

وأخيراً أسلحة الدمار الشامل التي تهلك الحرث والنسل وتأكل الأخضر واليابس
يقول تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض
الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ٤١ — الروم .

ونجد كثيراً من الناس قد وهبهم الله عقولاً وأجساداً سليمة وصحيحة ولكنهم
أفسدوها بتعاطي المخدرات والمسكرات وممارسة الرذيلة وعصوا ربهم بمخالفة أوامره
وإتيان ما نهى عنه من المحرمات فأصبحوا عرضة للأمراض الفتاكة التي تودي
بحياتهم .

وصدق تعالى إذ يقول ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم
يظلمون ﴾ ٤٤ — يونس ، كما صدق من قال « خير من الله شر من نفوسنا » .

الباب الرابع

تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بقضية الجبر والإختيار

هناك أمور وحقائق يجب على الإنسان معرفتها والتسليم بها حتى لا يلتبس عليه فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بقضية الجبر والإختيار فيظن خطأ أن الإنسان العاصي مجبر على معاصيه ومجبر بالتالى على أن يلقى مصيره المحتوم وهو دخول النار ظلماً ، وهذه الأمور والحقائق سنفردها فيما يلى :

المبحث الأول

إن علم الله سابق لقضاء الله وقدره وخلقه للأشياء ، وهذه حقيقة بديهية لأن العلم شأن الحكمة والقدرة والإرادة جميعها صفات لله تعالى قديمة بقدم الله ودائمة بدوامه وباقية ببقائه فهو كان ولم يزل عليمًا حكيمًا قديرًا فعالاً لما يريد إذ لا يتصور الإله بدونها .

أما القضاء والقدر والخلق فهي أثر من آثار هذه الصفات الإلهية أى أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء وأوجدها واستحدثها من العدم ، ولا يمكن للأثر أن يسبق الذات كما لا يمكن للمخلوق أن يسبق الخالق ولا للموجود أن يسبق الموجد .

إنطلاقاً من هذه الركيزة فإن من واجبنا التسليم والإعتقاد بأن الله عز وجل كان يعلم قديماً منذ الأزل ما سيفعله العباد مختارين من خير أو شر قبل أن يكتب أقدارهم ، وبناء على ذلك جاءت أقدار العباد وفق ما يعلمه الله فكتب لهم أقدارهم قبل أن يخلقهم ، قَدَّر للعبد أنه سيؤمن وقَدَّر للآخر أنه سيكفر ، قَدَّر لعبده أنه سيطيعه بصلاة أو بزكاة أو بحج أو بصلة رحم أو بإحسان إلى العباد أو بغير ذلك من أبواب الخير ، وقَدَّر للآخر أنه سيعصيه بقتل أو بسرقة أو بزنا أو بظلم أو بقطيعة رحم أو بغير ذلك من أبواب الشر .

الكل قديم في علم الله فمن المحال أن يفاجئ العبد به بما لا يعلمه ، من أجل ذلك فإن كل ما سيفعله العبد منذ ولادته حتى مماته مطابق لما قدره الله له قبل خلقه وفق علمه السابق .

والدليل على أن الله عز وجل كتب المقادير عن علم سابق قوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ١٢ — فصلت ، وكما قدر الله للعباد أفعالهم الإختيارية فإنه أيضاً قدر عليهم ما يصابون به من أقدار إجبارية حتى قيام الساعة من أرزاق وأعمار ومصائب وأمراض وابتلاءات بالخير والشر فتنة لهم ، وكذلك قدر ما سيكون وما هو كائن في هذا الكون بمشيئته إلى قيام الساعة .

ونظراً لأن كاتب هذه الأقدار ومحدداتها هو الله العليم الحكيم الخبير فإنه قد أحدث توازناً وانسجاماً لا تعارض فيه بين الأقدار التي رسمها لعباده والأقدار التي رسمها للكون بأكمله وأيضاً بين أقدار العباد الإختيارية وأقدارهم الإجبارية في هذه الحياة الدنيا حتى قيام الساعة ، فالعبد قدر له في علم الله أنه سيرتكب جريمة قتل باختياره فيترتب على ذلك قدر إجباري لكل من القاتل والمقتول ، أما المقتول فلأنه قُتل وأما القاتل فلأنه قد يعاقب بجريمته في الدنيا فيقتل أو يسجن ويتغير مسار حياته ، إضافة إلى ما يلحق بأهل كل من القاتل والمقتول من الضرر من جراء تلك الجريمة ، وما يقال عن القتل يقال أيضاً عن غيره فالإنسان يخطو باختياره خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس فالكون حلقات متشابكة والأفعال الإختيارية متخللة بين الأفعال الإجبارية ، كما أن إختيار العباد ومشيئاتهم داخلية في إطار ومجال المشيئة الإلهية الكبرى لا تخرج عنها ولا تتعارض معها فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن ولا يعزب عن علمه ظاهر ولا يخاف والذي قدر الأقدار بمشيئته فما لم يشأ الله لم يكن وما شاء كان دون تعارض بيده مقادير ومقاليده وتدبير كل شيء .

قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ٢٥١ — البقرة .

وقال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم .

وقال ﷺ « أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة » رواه مسلم ، وقال رسول الله ﷺ « أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » رواه الترمذي وأبو داود .

المبحث الثاني

إن الله عز وجل عندما قدر للعباد أقدارهم قبل أن يخلقهم جعل أقدارهم الإجبارية ومصائرهم بعد الموت وأماكنهم من الجنة أو النار مرتبة على أعمالهم ونواياهم وعقائدهم وفق ما يعلمه الله أنه سيكون منهم في دار الدنيا وهذا هو معنى قول النبي ﷺ « ما من نفس منقوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار » متفق عليه .

وفي رواية أخرى « ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة و النار » رواه مسلم ، وفي رواية أخرى « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » متفق عليه

وقد ذكرت كل رواية من هذه الروايات أن رسول الله ﷺ سئل أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فيجيبهم رسول الله ﷺ بقوله « اعملوا » فدل ذلك على أن أقدار العباد ومصائرهم إلى الجنة أو إلى النار مرتبة على أعمالهم التي تصدر منهم باختيارهم ولو كانوا مكرهين على ما قدر عليهم من الجنة أو النار لوافقهم رسول الله ﷺ على الإتكال على ما كتب وقدر عليهم إذ أن العمل في هذه الحالة لن يفيد ولن يغير مما أكرهوا عليه من الأقدار شيئاً ولكن دعوة رسول الله ﷺ لهم بالعمل دليل على أن العمل يفيد وله دخل مباشر في تحديد أقدارهم ومصائرهم ، ومع ذلك فإن ما سيقدمونه من العمل حتى يماتهم معلوم ومكتوب ومقدر قبل خلقهم ، وبالتالي فإن أقدارهم الإجبارية ومصائرهم المترتبة على هذه الأعمال معلومة لله ومدونة قبل أن يخلقهم فحينما شرع الله في خلقهم كان يعلم أثناء خلقه لهم قدر كل مخلوق منهم ومصيره إلى الجنة أو إلى النار وكان قبل ذلك قد خلق الجنة وخلق النار فكانه بذلك قد خلق للجنة أهلها وخلق للنار أهلها وهذا هو معنى قول النبي ﷺ « إن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً » رواه مسلم .

وفي رواية أخرى « إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم » رواه مسلم .

وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم « قيل يارسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم » ، وأيضاً ما أخرجه الإمام مسلم (قال سراقه بن مالك يارسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم ، أفيمّا جفت الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما نستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال ففيم العمل ؟ قال « اعملوا ») .

إن الله يعلم مصير كل إنسان ومكانه من الجنة أو النار كما أن أعمال العباد معلومة ومكتوبة ومقدرة وهذه جميعها أمور بديهة لابد أن يقرها ويعتقدها كل عبد مؤمن بعظمة الإله الخالق وبأن الله هو علام الغيوب وأن علمه قد تخطى حواجز الزمان فتساوى عنده الماضي والحاضر والمستقبل وعلم ما كان وما يكون وما سيكون من عبده وما ذاك إلا لأنه هو خالق الزمان والمكان ، وعنصر المفاجأة لا يجوز في حق الله فمن المحال أن يفاجيء العبد ربه بما لا يعلمه فالإله لا يعلم من بعد جهل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالعبد لا يأتي بجديد بل الكل قديم في علم الله ، وليس معنى أن الله عز وجل يعلم أعمال العباد ومصائرهم أنه أجبرهم على الإتيان بهذه الأعمال التي تقودهم إلى الجنة أو النار رغماً عنهم فالله لا يظلم أحداً من خلقه .

إن العبد لا يعرف المصير الذي قدره الله له ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه لتتداركه رحمة الله وفضله ويفوز بالجنة فإذا التمس الوسيلة التي أرادها الله منه وهي الإيمان والعمل الصالح بلغ مصيره الذي قدره الله له وهو دخول الجنة ، أما إذا التمس الوسيلة التي نهاه الله عنها وهي الكفر والفسوق والعصيان بلغ مصيره الذي قدره الله له وهو دخول جهنم أعاذنا الله منها .

إن قدر الله في عبده يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه لأن الله قد خلق له القدرة على توجيه نفسه إلى الخير أو الشر فعلياً أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا به وأن ندع الله غيب مشيئته فينا واثقين بأن الله تعالى لا يظلم أحداً من خلقه .

المبحث الثالث

يقول ﷺ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه مسلم .

والتيسير معناه أن الله عز وجل يسمح للإنسان أن يفعل الخير أو الشر بكامل حريته واختياره دون إكراه ، وهو في إختياره هذا لا يخرج عما قدره الله له وما خلقه من أجله ، وتيسير الله لعبده هو عين مشيئته سبحانه وهو أمر لا بد منه لوقوع الحدث لأنه لا شيء يحدث في ملكوت الله إلا بأذن الله ومشيئته فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وشتان في المعنى بين التيسير والتيسير فلو قيل « كل مسير لما خلق له » لفهم معنى إجبار الإنسان وإلزامه كرهاً على فعل الخير أو الشر ، فالإنسان لا يزال يقدم على فعل الخيرات وييسره الله لذلك حتى إذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما قدمت يدها ثم أدخله الجنة فكان مخلوقاً لها .

والإنسان لا يزال يقدم على فعل المعاصي وييسره الله لذلك حتى إذا كان يوم القيامة حاسبه الله على ما قدمت يدها ثم أدخله جهنم فكان مخلوقاً لها .

فكان الإنسان يحدد لنفسه ما خلق من أجله بما يفعله بكامل حريته واختياره من أعمال ييسره الله على الإتيان بها ليكون من أهل الجنة أو من أهل النار . ونجد هذا المعنى في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيسُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيسُ لِلْعُسْرَى ﴾ ٥ - ١٠ — الليل ، وأيضا قول النبي ﷺ « فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ » رواه مسلم ، وكلمة (اعملوا) في الحديث النبوى تبين ضرورة العمل وأهميته في تحديد مصير الإنسان الذى خلق ليكون من أهل الجنة أو من أهل النار ، ولو لم يكن العمل سبباً لذلك لما أشار إليه رسول الله ﷺ أمراً في مستهل حديثه . وانطلاقاً من القاعدة التى نحتكم إليها بأن ما يقدمه الإنسان من خير أو شر هى أقدار إختيارية أما

ما يترتب على هذه الطاعات والمعاصي فهي أقدار إجبارية يحسن أن نشير تأكيداً لهذا المعنى إلى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ١٦ — الإسراء ، فمعصية مترفي أهل هذه القرية لله وعدم تنفيذهم ما أمرهم به هي أقدار إختيارية ، أما ما يترتب على هذه المعصية من الخراب والدمار الشامل الذى شمل القرية بأسرها فهو قدر إجبارى واقع لا محالة .

ويشير إلى حتمية هذا الحدث قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ . ودليلنا على أن دمار القرى قدر إجبارى قوله تعالى فى آية أخرى ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ ٥٨ — الإسراء .

ولكن حتمية هذا القرار الإلهى لم يأت ظلماً أو عنوة أو جزافاً بل جاء مترتباً على معصية علمها الله قبل أن تحدث ودليلنا على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ١١٧ — هود .

قال ﷺ « كل يعمل لما خلق له » وفى رواية « كل يعمل لما يسر له » رواه مسلم .

أى كل يعمل باختياره المطلق ما يسره الله له فإن كانت أعماله صالحة وهو مؤمن دخل الجنة خالداً مخلداً فيها فكان مخلوقاً لها ، وإن كانت أعماله غير صالحة وهو كافر دخل النار خالداً مخلداً فيها فكان مخلوقاً لها ، أما المسلم العاصى فإنه لا يخلد فى النار بل يخرج منها برحمة الله إلى الجنة فيكون من أهلها . والسبب الذى من أجله كان مخلوقاً للجنة أو للنار أن الله عز وجل علم بالغيب ما سيكون من اختيار العبد وأفعاله وعقيدته فمن كان عمله صالحاً فى علم الله وهو مؤمن كان مخلوقاً للجنة ، ومن كان عمله سيئاً فى علم الله وهو كافر كان مخلوقاً للنار .

المبحث الرابع

إن الله عز وجل خلق البشر وألهمهم التقوى والفجور وعرفهم طريق الإيمان من الكفر وطريق الخير من الشر وطريق الحق من الباطل بأن خلق لهم عقولاً وأسماعاً وأبصاراً وأفئدة وأنزل إليهم الرسالات السماوية ليعرفوا مراد الله منهم وليتبين لهم سبيل الهدى والرشاد الذى يوصلهم إلى مرضاة الله ودخول الجنة من سبيل الكفر والضلال الذى يوصلهم إلى سخط الله ودخول النار ، وأمدهم بالإرادة والقدرة على الاختيار والتوجه ناحية الخير أو الشر لينظر ماذا يعملون .

والدليل على أن الإنسان مخير فى أعماله أن الله عز وجل بعد أن ذكر أنه خلق الناس على صنفين منهم الكافر ومنهم المؤمن ختم الآية بقوله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ليبين أن ذلك تم بسبب أعمالهم واختيارهم وذلك فى قوله تعالى ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ ٢ — التغابن ، فلو أن الله عز وجل خلقهم ليكونوا كفاراً جبراً ويدخلون النار وخلق الآخرين ليكونوا مؤمنين جبراً ويدخلون الجنة لما قال فى ختام الآية الكريمة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ — الكهف ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إن مشيئة الله قضت ألا يترك الناس دائمين على ما هم عليه حتى يمتحنهم ويبتليهم بالشر والخير فتنة لهم ، وأمام هذا الإبتلاء ينقسم الناس إلى ثلاث طوائف :

(أ) الطائفة الأولى : يفسدها إنقلاب حالها من العسر إلى اليسر ومن الضراء إلى السراء ومن الشر إلى الخير فهم يكفرون بنعمة الله ويظفون على عباد الله ويعرضون عن ذكر ربهم يظنون بذلك أنهم قد استغنوا عن ربهم ثم يعيشون فى الأرض فساداً ويرتكبون المعاصى وينتهكون الحرمات ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ وكلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ ٦ ، ٧ — العلق

﴿ وإذا مس الناس ضرٌ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق

منهم يبرهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿ ٣٣ ، ٣٤ —
الروم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونمأ بجانبه ﴾ ٥١ — فصلت .
﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما
كانوا يعملون ﴾ ١٢ يونس .

﴿ ثم إذا حوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل
عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ ٨ — الزمر .
﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة
ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من
عذابٍ غليظ ﴾ ٥٠ — فصلت .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكرٌ في آياتنا قل الله
أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ ٢١ — يونس .
﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ ٢١ — المعارج .

(ب) الطائفة الثانية : يفسدها إنقلاب حالها من اليسر إلى العسر ومن السراء إلى
الضراء ومن الخير إلى الشر فهم يسخطون على قضاء الله وقدره ويقنطون من رحمة
الله ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليغفور كفور ﴾ ٩ — هود .
﴿ وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ — الروم .
﴿ وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ ٤٨ — الشورى .
﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني ﴾ ١٦ — الفجر .
﴿ لا يستم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيغوس قنوط ﴾ ٤٩ —
فصلت .

﴿ وإذا مسه الشر كان يقوسا ﴾ ٨٣ — الإسراء .
﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ ٢٠ — المعارج .

(ج) الطائفة الثالثة : هى طائفة المؤمنين لا يتزعزع إيمانهم بربهم إذا انقلبوا من حال إلى حال فهم شاكرون فى السراء ، صابرون فى الضراء ، راضون بقضاء الله وقدره ، هؤلاء هم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

من أجل ذلك فقد قضت مشيئة الله ألا يترك العباد حتى يتلبسهم بالشَّر والخير .
فتنة قال تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ - ٣
العنكبوت ، وقال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشَّر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ - الأنبياء ، والجنة هى سلة الله الغالية لا يدخلها إلا من كان أهلاً لها ، من ابتلاه الله فثبت على إيمانه ورضى بقضاء الله وقدره لأنها دار النعيم المقيم التى أعدها الله للمتقين من دخلها فلا يخرج منها أبداً ، ويحيا فلا يموت أبداً ، ويسعد فلا يشقى أبداً ، ويأمن فلا يخاف أبداً ، لا يصيبه مرض ولا هم ولا يمسه تعب ولا جوع ولا عطش ، أعد الله فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هى دار الكرامة من دخلها فقد فاز ومن حرمها فقد خسر وخاب .

قال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ - آل عمران .

إن الله عز وجل يرفع بهذا الإبتلاء أقواماً ويضع آخرين يدل على ذلك قوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ - الأعراف .

والله عز وجل له أن يبتلى من يشاء من عباده ولم يظلم من فشل فى الإبتلاء منهم فأدخله النار لأنه لم يجبره على الكفر والمعصية بل جعله يتعامل مع الإبتلاء بكامل إرادته. وحرية واختياره ، قال ﷺ « إن الله من على قوم فألهمهم الخير فأدخلهم فى رحمته ، وابتلى قوماً فخذلهم وذمهم على أفعالهم ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم وهو عادل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فينزل عليه الإبتلاء من ربه فى

آخر عمره فيسخط في الضراء ويتكر الله في السراء فيدخل النار ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فينزل عليه الإبتلاء من ربه في آخر عمره فيرضى بقضاء الله وقدره ويصبر في الضراء ويشكر في السراء فيدخل الجنة .

ما سبق أن أوضحناه هو تفسير للمعاني الواردة في هذه المجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، قال رسول الله ﷺ :

« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » متفق عليه .

« إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » رواه مسلم .

« الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » رواه البخارى .

« إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » رواه مسلم .

والحديث الأخير قد يتحقق معناه لأسباب أخرى غير الإبتلاء ، منها أن الرجل قد يعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ولكنه قد يكون مرئياً أو منافقاً أو منافاً أو نوى به نفعاً دنيوياً قاصداً بذلك ثواب الدنيا وليس ثواب الآخرة فحينئذ يعامله الله على نيته وقلبه مما لا يعلمه الناس فيكون من أهل النار ، أما الآخر فقد يعمل أعمالاً تبدو للناس في ظاهرها أنها من أعمال أهل النار الشريرة ولكنه قصد بها أن يصلح بها أمراً أو يدرأ بها شراً أو يمنع بها ضرراً أو يرفع بها ظلماً مما لا يعلمه الناس فعامله الله على نيته وقلبه فكان من أهل الجنة .

كما تجدر الإشارة إلى أن القاعدة الرئيسية أن من عمل بعمل أهل الجنة يختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها ومن عمل بعمل أهل النار يختم له بعمل أهل النار

فدخلها ، أما ما ورد في الأحاديث سائلة الذكر فهي أحوال نادرة واستثنائية تقع للبعض من الناس وليس للأغلبية منهم أراد النبي ﷺ أن يذكرها حتى يبين لأمتهم أن الأعمال بخواتيمها حتى لا يتكلموا في آخر عمرهم على ما قدموه طيلة حياتهم من أعمال صالحة فالمؤمن يجب أن يقضى حياته كلها في طاعة ربه بين الخوف والرجاء ولا يستكثر أعماله الصالحة حتى يقبضه الله على ذلك .

وهناك أمور أخرى غير الابتلاء تصلح لأن تكون تفسيراً لتغير خاتمة عمل العبد في نهاية عمره فالدعوة المستجابة والتوبة النصوحة وترك الكفر إلى الإيمان في نهاية العمر كل منها قد يكون سبباً في أن تختم له أعماله الشريفة في الدنيا بعمل أهل الجنة فدخلها وكذلك إذا ألهمه الله ووفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه ففعله دون ابتلاء ختم له بهذا العمل الصالح فدخل الجنة .

أما الآخر الذي عمل طوال حياته بعمل أهل الجنة فربما صدرت منه الفاحشة في آخر حياته دون ابتلاء وهو لا يعلم أن أجله قد حان فيمت على تلك المعصية قبل أن يتب أو لعل الله اطلع على قلب هذا الرجل الذي عمل طوال عمره بعمل أهل الجنة فوجد قلبه فاسداً ونيته فاسدة وعقيدته فاسدة كمن عبد ربه بجهل أو داوم على بدعة أو أخفى في قلبه شركاً أصغراً أو كان ممن يصدقون الكهنة ويأتون السحرة أو كان ممن ينكرون القدر كله أو بعضه أو يخفون في صدورهم حقداً وحسداً ومع ذلك فهم يعملون بعمل أهل الجنة فيختم الله لهم بعمل أهل النار فيدخلونها وما كان الله ليظلمهم ولكنهم هم الظالمون .

وتجدر الإشارة إلى أن من ختم حياته الدنيا بالمعاصي وكان موحداً فإنه يدخل النار فيمكث فيها ما شاء الله له أن يمكث ثم يدخل الجنة ، ولا يخلد في النار إلا الكافر .

وقد روى الإمام مالك في موطأه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أَشْرَكُ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ قال : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه حتى استخرج منه ذرية فقال هؤلاء للجنة وعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح

ظهوره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء النار ويعمل أهل النار يعملون .

عندما مسح الله عز وجل ظهر آدم عليه السلام يمينه واستخرج منه ذريته منهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار لم يكن ذلك عشوائياً بل فعله الله عن علم وتقدير سابق ، وكما أسلفنا فإن علم الله وتقديره لأفعال العباد سابق للخلق وبناء على ذلك فإن الله جل شأنه وقت خلقه لهم كان يعلم من منهم من أهل الجنة ومن منهم من أهل النار وفقاً لما يعلمه الله عن أعمالهم وعقائدهم ، معنى ذلك أنه خلق بعضهم للجنة وخلق البعض الآخر للنار لأن مصائرهم معلومة له سبحانه قبل أن يخلقهم .

أما قول النبي ﷺ « ويعمل أهل الجنة يعملون » وقوله « ويعمل أهل النار يعملون » أى سيعملون وفق ما يعلمه الله عن أعمالهم ، وهذا القول مشابه لقول النبي ﷺ حينما سئل عن أطفال المشركين من يموت منهم صغيراً هل يدخلون الجنة أو النار ؟ قال رسول الله ﷺ « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » رواه مسلم ، أى أن الله وقت أن خلقهم كان يعلم ما سيأتون به من الأعمال لو أمد لهم في آجالهم ، فعلم الله بما سيختاره عبده من الأعمال لا يستلزم أن يقيمهم في الدنيا أحياء لياشروا تلك الأعمال والدليل على ذلك قوله تعالى لنبيه نوح عليه السلام ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ ٣٦ — هود ، وكذلك دعوة نوح على قومه بعد أن أطلعه الله على الغيب فعلم أنهم لا يؤمنون قال تعالى ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ ٢٦ — نوح .

فبرغم أن الله عز وجل أهلك مع قوم نوح أطفالهم الذين لم يبلغوا العلم ولم يمهلهم حتى يمارسوا تجربتهم مع الإيمان إلا أنه سبحانه كان يعلم أنه لو أمهلهم لاختاروا الكفر على الإيمان .

وأيضاً الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام بأمر من الله أمام نبي الله موسى عليه السلام كان لحكمة وهى أن أبويه مؤمنين وقد علم الله أنه لو كبر لأرهمهما طغياناً وكفراً فأراد الله أن يبدلهما من هو خيراً منه .

نستنتج من ذلك أن الله عز وجل علم قبل أن يخلق عبده ماذا سيختار من الأفعال حتى ولو أماته قبل أن ينفذها ، وحتى لو لم يخلقه في الأصل فالله عز وجل علم أفعال هؤلاء العباد ولكنه لم يأذن لها بالوقوع فلم تحدث إذ أنه لا شيء يقع في الكون إلا بأذن الله ومشيعته ، أما سبب إبقاء الله لعباده أحياء في أغلب الأحيان لتصدر منهم أعمالهم بعد موافقة الله وإذنه فهي لإقامة الحجة عليهم فلا يقولون أنهم لو تركوا أحياء لما صدرت منهم كل هذه المعاصي . مما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل لو أنه خلق خلقاً فأدخله الجنة مباشرة وخلق خلقاً آخر فأدخله النار مباشرة لم يك ظالماً بل كان عليمًا حكيمًا إذ لا يحتاج علم الله إلى تركهم في الحياة الدنيا ، ومن هنا يتبين لنا معنى قوله تعالى في الحديث السابق (خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، وخلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون) دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم على العباد والدليل على ذلك أن الآية الكريمة لا تحمل معنى إجبار من حق عليه العذاب من ذرية آدم على الكفر والإشراك والهلاك في نار جهنم والآية الكريمة هي الأصل أما الحديث النبوي فهو مجرد شارح لها فلا ينبغي لأحد أن يفهم الحديث النبوي بعكس ما نصت عليه الآية الكريمة . إن الآية الكريمة تعطى الدلالة على أن الله عز وجل استخرج من آدم عليه السلام ذريته من قبل أن يخلق أجسادهم ربما كأرواح أو أنفس لا أحد يعلم إلا الله ، المهم أنهم على هيئة لا يحجبها شيء عن الإيمان الفطري الذي أودعه الله إياها فهم في حضرة الرب جل وعلا وإيمانهم به بلغ أقصى درجات اليقين فهم يستشعرون أثر ربوبيته فيهم ويدينون إليه بالولاء والعبودية ، ويعلم الخالق نقاء الفطرة الإيمانية فيهم وتيقنهم من ربوبيته لهم فيشهدهم على ذلك لا على سبيل اختبارهم ومعرفة إجاباتهم بالنفى أو الإثبات ، وإنما على سبيل الإقرار بما هو معلوم ومتيقن لديهم جميعاً ولذلك جاء سؤال الرب لهم بهذه الصيغة « ألسنتُ بربكم ؟ » فأجابوه مدعين موقنين « قالوا بلى شهدنا » لأنهم كما أسلفنا يستشعرون آثار ربوبيته فيهم وهم في حضرة الرب جل وعلا يخاطبهم ويتجلى عليهم بأنوار ربوبيته ويخاطبونه بنفس الفطرة الإيمانية التي سيخلقهم عليها في دار الدنيا ، هذه الفطرة التي قال عنها رسول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » متفق عليه ، وهي أيضا التي ذكرها الله تعالى في كتابة الكريم بقوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ٣٠ - الروم .

ثم أنبأهم ربهم بعد أن أقروا بربوبيته لهم ، أنهم سيواجهون في حياتهم الدنيا بعد سن الإدراك والبلوغ مجموعة من الحواجز والحجب تحجب عن هذه الأرواح والأنفس إيمانها الفطرى بربها أو تطفئ جذوته إلا من رحم الله ، وهذه الحجب هى متطلبات الجسد وشهوات النفس ، ومفاتن الدنيا وزينتها ومشاعلها ، ووسوسة الشيطان وغوايته لهم ، فعليهم أن يحذروا لأنهم سيتمتحنون في إيمانهم ، ثم أشهدهم بهذا الإقرار على أنفسهم حتى لا يأتون يوم القيامة كفاراً فيبررون كفرهم بأن هذه الحجب قد أنستهم إيمانهم الفطرى بربهم وجعلتهم في غفلة عما سبق أن أقروا به من الربوبية لله رب العالمين ، أو أن يقولوا بأن آباءهم قد أشركوا فهم على آثارتهم مقتدون وهذا أيضاً مرجعه الغفلة بفعل هذه الحجب التى حجبت عنهم هذا الإيمان الفطرى فجعلتهم يتبعون آباءهم في الشرك وهم المسؤولون عن غفلتهم لأنهم استمعوا إلى وسوسة الشيطان وغوايته فاتبعوا شهوات النفس وانشغلوا بمتطلبات الجسد وماديات الحياة وجروا يلهثون وراء مفاتن الدنيا وزينتها وشهواتها ، ولو أنهم أطاعوا الله وانشغلوا بعبادته واجتنبوا ما نهىهم عنه والتزموا بالمنهج القويم الذى رسمه الله لهم لصاروا في منأى عن هذه الحجب وظلوا على ما هم عليه من الإيمان الفطرى وحينئذ لا تأخذهم الغفلة ولا يؤثر فيهم إشراك آبائهم لأنهم سيهتدون إلى معرفة الخالق بهذه الفطرة الإيمانية السليمة التى أودعها الله فيهم وصانوها ، والأمثلة على ذلك كثيرة في الحياة حيث نجد كثيراً من الشباب ابتلاهم الله بآباء فاجرين وكافرين ولكنهم اتبعوا طريقاً مخالفاً لطريق آبائهم .

إذا مات ابن آدم انكشفت عنه هذه الحجب التى حجبت إيمانه الفطرى وسببت له الغفلة فعابن الحقيقة ورآها رأى العين وتكشف له كل شيء ولكن للأسف بعد فوات الأوان فلن ينفعه إلا إيمان سابق في هذه الحياة الدنيا .

يقول تعالى ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ ٢٢ - ق .

إن الله عز وجل بهذا الإقرار الذى أخذه من ذرية آدم يكون قد أخذ عليهم أول عهد وأول ميثاق وحملهم أول أمانة ولكن أغلبهم للأسف لم يكونوا جديريين بالوفاء ولا بحمل الأمانة وصدق تعالى إذ يقول ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض

والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴿٧٢﴾
 — الأحزاب ، وقال تعالى ﴿٧٣﴾ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴿٧٤﴾ — الإسراء ،
 وربما يتساءل أحد ، ما الحكمة من هذه القصة مادامنا لا نتذكر شيئاً من أحداثها ؟
 للإجابة على هذا السؤال نقول بأن الله عز وجل أراد أن يقص علينا ما نسيناه من
 إقرارنا على أنفسنا بأن الله هو ربنا وأننا سنسأل عن هذا الإقرار والعهد الذي أخذته
 علينا لكي نتدبر أمرنا من الآن ، كما أراد أن يبلغنا بأننا مفطورون على الإيمان بالله وأن
 يحذرن من اتباع الشهوات التي تحجبنا عن هذا الإيمان الفطري وتسبب لنا الغفلة ، كما
 أراد أن ينبئنا وفق علمه الغيبي بأن الكافرين منا سيختلقون الأعذار يوم القيامة في
 محاولة منهم للتخلص من مسئوليتهم عن هذه الغفلة ، وأن هذه الأعذار لن تقبل
 منهم ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن ما ارتكبه من الكفر والمعاصي تم
 بإرادتهم واختيارهم فلم يكن الله ليجبرهم على الكفر بعد أن فطروهم على الإيمان ، ولم
 يكن الله ليظلمهم ولكنهم هم الظالمون .

نعود إلى موضوعنا الأصلي بشأن تقدير أعمال العباد فنقول بأن الله عز وجل قدر
 لكل عبد رزقه وأجله وهما من الأقدار الإلزامية التي تمت بمشيئة الله وحده وغير مترتبة
 على أفعال العباد ، كما قدر له مكانه من الجنة أو النار وهذا مع كونه قدر إجباري تم
 أيضاً بمشيئة الله وحده إلا أنه مترتب على أفعال العبد فمن آمن وعمل صالحاً كان
 من أهل السعادة ومن كفر وعصى كان من أهل الشقاء ، كما قدر له عمله وفق علمه
 السابق بما سيفعله العبد بكامل حريته واختياره ، فهو قدر إختياري لمشيئة العبد دخل
 فيما يأتي به من الأعمال بجانب مشيئة الله التي سمحت وأذنت لهذه الأعمال أن تقع
 فلا شيء يقع في الكون إلا بأذن الله ومشئته . . وجميع هذه الأقدار الإلزامية
 والإختيارية للعبد وهى رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد كتبها الله وقدرها على عبده
 قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فإذا أصبح العبد مضغعة في بطن
 أمه أرسل الله إليه ملكاً فينفخ فيه الروح ثم يؤمر بكتابة رزقه وأجله وعمله وشقى أو
 سعيد وفق ما هو معلوم لله ووفق ما هو مقدر ومكتوب ومدون في أم الكتاب أو
 اللوح المحفوظ ، وليس معنى أن الله حدد للعبد عمله وهو في بطن أمه أنه أجبره على
 الإتيان بهذا العمل ولكن الله حدد له عمله بناء على علمه السابق بما سيفعله العبد
 مختاراً . ما سبق ذكره يعد توضيحاً لمعنى قول النبي ﷺ :

« إن أحلكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

المبحث الخامس

إن خلق الجنة والنار تم بمشيئة الله وحده وخلقهما منفصل تماماً عن أفعال العباد وغير مترتب عليه شأنه شأن خلق السموات والأرض وما بينهما ، أما دخول العباد إلى الجنة أو دخولهم إلى النار فانها تمت بمشيئة الله وحده الذى له الحق فى أن يحدد الثواب والعقاب لمن أطاعه أو عصاه ولكنها مترتبة على أفعال العباد لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ومن كفر وعصى ربه دخل النار .

ولقد أخذ الله على نفسه العهد أن يملأ الجنة ويملا النار فأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة حتى تمتلئ ، وأما النار فليس معنى أن الله يملأها أنه يجبر عباده على دخولها فقد سبق أن بينا أن من روائع قدرة الله إحداث انسجام بين الجبر والإختيار وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الإختيارية بحيث لا توجد تناقضات بين الاثنين وبحيث يتلاقيان معاً فى النهاية فى خط واحد ، فالله عز وجل يعلم من يستحق دخول النار من عباده بسبب معاصيهم قبل أن يخلقهم وقدر عددهم فى فترة زمنية معينة هى عمر الدنيا حتى قيام الساعة بما يتناسب مع سعة جهنم ومع ذلك فإن جهنم بعد أن يضع الله فيها جميع الكفار الذين كتب عليهم الخلود تقول هل من مزيد ولا تمتلئ إلا إذا وضع الرب فيها قدمه ، ومن هنا يتبين لنا أن الله عز وجل لم يظلم أحداً من خلقه عندما شاء أن يملأ النار .

قال الله تعالى ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأتى وتقول هل من مزيد ﴾ ٣٠ - ق ، وقال تعالى لابلis ﴿ فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ ٨٤ ، ٨٥ - الزمر ، وقال تعالى ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ١٣ - السجدة ، وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ١١٩ - هود ، وكلمة (أجمعين) فى هذه الآيات الكريمة معناها (مجتمعين) .

وقال عليه الصلاة والسلام (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك أى

اكتفيت وامتألت » ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة (رواه البخارى .

وقال عليه الصلاة والسلام « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمنجبرين وقالت الجنة فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرهم فقال الله تعالى للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشياء من عبادى وقال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشياء من عبادى ولكل واحدة منكما على ملؤها ، فأمله النار فلا تمهل حتى يضع الله تعالى قدمه فتقول قط قط ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً » رواه الشيخان والترمذى .

ولنتمعن فى قول رسول الله ﷺ « .ولا يظلم الله من خلقه أحدا » بعد أن أخبر بامتلاء النار .

المبحث السادس

إن الله عز وجل وعد عباده ألا يظلمهم وحرّم الظلم على نفسه ولكنه لم يعط وعداً لعباده أن يساوى بينهم في العفو والفضل فهو سبحانه يعفو عن يشاء ويتفضل على من يشاء لأن العبد إذا أذنب وعصى ربه ثم ساعه الله وعفا عنه فإنما يسامح في حق من حقوقه لأنه سبحانه هو المقصود بالطاعة واجتناب النواهي خوفاً منه ورجاء لما عنده كما أنه مالك الملك يتفضل منه على من يشاء من عباده يقول تعالى ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٤ — الجمعة .

من أجل ذلك فإن الله عز وجل لا يقتصر فضله على عبده المؤمن في أنه يأذن له بأن يفعل الخير ، ولكنه أيضاً يلهمه ويوفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه أو يحفظه من إتيان الفواحش والمنكرات ، فإن قال العبد الآثم ولماذا لم يوفقني إلى ما وقفه إليه من العمل الصالح ولم يحفظني مما حفظه منه ؟ قيل له وهل ظلمك في شيء ؟ إنه بين لك طريق الخير وطريق الشر ثم تركت تختار بحريتك وكامل إرادتك ما تشاء ولم يجبرك على شيء فاخترت طريق الشر ، فالله عز وجل عاملك بما تستحق ولكنه عامل من أحبه وأراد له الخير بمقتضى فضله لحكمة يعلمها سبحانه .

ويصدق هذا المثل على رجلين يبعثان يوم القيامة قد أسرفا على أنفسهما فيأخذ الله أحدهما بذنبه ويعفو عن الآخر لحكمة يعلمها ، فالله هنا لم يظلم عبده الأول بل عامله بما يستحق أما الثاني فقد عامله بمقتضى فضله ، والدليل على ذلك قوله تعالى عن دعاء الملائكة لربهم للمؤمنين ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ٩ — غافر .

وقاية الله لهم من السيئات في الدنيا أن يحفظهم من فعل المنكرات والفواحش وإذا وقاهم الله منها في الدنيا فقد رحمه يوم القيامة من عواقبها ، وقد يقى الله عبده المؤمن من بعض سيئاته يوم القيامة بأن يعفو عنها ويتجاوز عن عواقبها يدل على ذلك ما أخبر به رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يرحم ستره على عبده المؤمن يوم القيامة فيذكره بذنوبه ذنباً ذنباً حتى إذا ظن أنه قد هلك قال له الله تعالى قد سترتها عليك في

الدنيا واليوم أسترها عليك إذ ذهب فقد غفرت لك .

وكذلك قصة الرجل الذى مات موحداً ولكنه لم يفعل خيراً قط غير أنه كان تاجراً يقرض الناس ويمهل المعسر أو يتجاوز عنه فقال الله له نحن أولى بذلك منك فتجاوز عن سيئاته وأدخله الجنة ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

وكذلك جميع من ختمت أعماله فى الدنيا بعمل من أعمال أهل الجنة وكان موحداً فإن الله يبعثه يوم القيامة على مامات عليه من العمل الصالح ويدخله الجنة فإن دخلها فلا يخرج منها أبداً ، ومعنى ذلك أن الله عز وجل يعفو عن سيئاته التى قدمها قبل ذلك ، وكذلك فإن الله عز وجل يعفو عن سيئات المسلم العاصي الذى ارتكب صفائر الذنوب والآثام فيغفرها له ، يقول تعالى ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ﴾ ٣١ ، ٣٢ — النجم .

لقد أشار الله عز وجل فى الآيتين السابقتين إلى أنه يجزى المسيئين بما عملوا أى بما يستحقون دون أدنى ظلم عليهم ولكنه يجزى المؤمنين المحسنين الذين يراقبون ربهم ويخافونه كأنهم يرونه ويعلمون أنه يراهم فى جميع أحوالهم فيستحون منه أن يراهم على معصية فيجتنبون كبائر الإثم والفواحش خوفاً من الله وحياء منه يجزئهم بإحسان أعظم من احسانهم فيغفر لهم ما يتركبونه من اللمم أى صفائر الذنوب والآثار وهذه رحمة كبيرة من الله أن يقيم سيئات أعمالهم ويدخلهم الجنة .

وكذلك العبد التائب إذا قبل الله توبته غفر الله له وتجاوز عن سيئاته لقول النبى ﷺ « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وأيضاً الكافر الذى أسلم ثم مات غفر الله له جميع ذنوبه حتى لو امتلأت بها الأرض أو بلغت عنان السماء .

كما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ولم يظلم من استحقوا العذاب من الكفار والعصاة وهذا هو المفهوم الذى يجب أن يعتقده ويطمئن إليه كل إنسان ، أما الفضل فهو بيدى الله لا يمنحه لعباده بالتساوى بل يؤتبه لمن يشاء من عباده وبدرجات متفاوتة ، والله عليم بقلوب من تفضل عليهم وتقوى نفوسهم وسلامة فطرتهم وأعمالهم التى كانوا سيعملونها لو أمد فى آجالهم أو تغيرت ظروفهم فى هذه الحياة الدنيا ، يعلم ظاهر أمرهم وباطنه ، ويعلم أنهم أكثر استحقاقاً لفضل

الله من غيرهم ولذلك فضل الله نبيه محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة وقال له في محكم كتابه ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ ١١٣ — النساء .

والدليل على أن الله يعطى فضله الدينى عن علم وليس جزافاً أو عشوائياً وأنه عليم بمن يتفضل عليه قوله تعالى ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٧٣ ، ٧٤ — آل عمران ،

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً يعطى الدلالة على أن الله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ولكنه في نفس الوقت لا يساوى بينهم في الفضل ، قال رسول الله ﷺ « مثلکم ومثل اليهود والنصارى کمثل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود ، ثم قال فمن يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجرکم شيئاً ؟ قالوا لا قال إنما هو فضلى أوتيته من أشاء . »

وبالمثل قوله تعالى في الحديث القدسى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر » رواه مسلم ، فالزيادة في الحسنات وغفران السيئات من باب الفضل والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل وعدم الظلم . وكذلك قول النبی ﷺ فيما رواه عن ربه « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » رواه الشيخان وتختلف مضاعفة الحسنات باختلاف الأشخاص ودرجة إخلاصهم لله كما أن الله في بعض المناسبات والأماكن والأوقات والليالي والشهور نفحات ، فمضاعفة الحسنات من باب الفضل واستبدال السيئات حسنات لمن هم بها ولم يعملها أو لمن عملها ثم تاب عنها من باب الفضل أيضاً ، أما من جاء بالسيئة فعوقب عليها بسيئة مثلها فهذا من باب العدل وعدم الظلم .

ونفس هذه المعاني نجدها في قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ ١٦٠ — الأنعام ، ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ ٢٦١ — البقرة ، ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ٢٤٥ — البقرة ، ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ ٢٥ — الشورى ، والعبد في دار يتقبل الله منه إيمانه وتوبته عن كبائر الإثم والفواحش جميعها حتى الشرك بالله يدل على ذلك أواخر سورة الفرقان ويبدل الله سيئاته حسنات ، أما بعد الممات فإن العبد إذا جاء يوم القيامة مشركاً فلا يغفر الله له هذا الشرك أما عباده الموحدين فإنه يغفر لمن يشاء منهم جميع ذنوبهم أو بعضها مهما عظمت ويعذب من يشاء منهم على ما اقترفوه من هذه الذنوب العظام يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ٤٨ — النساء فأما الكافر والموحد اللذان لم يغفر الله لهما فقد عاملهما بما يستحقان دون أن يظلمهما ، وأما الموحد الذي غفر له ووقاه سيئاته فقد رحمه وتفضل عليه .

المبحث السابع

مما يثير الدهشة والعجب أن يعتقد بعض الناس أن الله عز وجل يجبر الكفار والعصاة على كفرهم ومعاصيهم مما يستوجب معه دخولهم النار ، وهذا كذب وافتراء على الله للأسباب الآتية :

أولاً : لأنه يتعارض مع العقل والمنطق فمن المحال أن يعاقبهم الله على معاصي أجبرهم على الإتيان بها ، كما أنه يتعارض مع مقتضيات العدل الإلهي إضافة إلى تعارضه مع نصوص الشريعة الإسلامية وجميع الشرائع السماوية التي تحمل الإنسان مسئولية عمله .

ثانياً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصي يتعارض مع الغاية التي من أجلها خلق الله العباد قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ٥٦ — الذاريات . فكيف يخلق الله عباده ليؤدوا وظيفة العبادة ثم يجبرهم على الكفر والمعصية ؟ .

ثالثاً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصي يتعارض مع ما يحبه الله فالله عز وجل يحب المؤمنين الطائعين العابدين الذاكرين لله كثير والمستغفرين بالليل والنهار وأشد ما يكون فرحاً إذا رجع إليه عبده تائباً من المعاصي ، وكلما تقرب إليه عبده بالفرائض والنوافل كلما ازداد تقرباً إليه بالحببة والمغفرة والرحمة . وفي المقابل فإن الله يكره الكفر والفسوق والعصيان ويذم أهله فكيف يجبرهم الله على عكس ما يحبه ؟ أيجبرهم على شيء يسخط عليه ويبغضه ؟ قال تعالى ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ ٧ — الزمر .

رابعاً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصي يتعارض مع رحمة الله التي وسعت كل شيء فمن المحال أن يبعد عن رحمته أحداً من خلقه إلا إذا كان مستحقاً لذلك ، وكما أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة فإنه كذلك حرم على نفسه الظلم ، ومعلوم أن الإجبار على الكفر والمعاصي ظلم فادح فسبحان الله وتعالى عن الظلم علواً كبيراً .

خامساً : لأن إجبار العباد على الكفر والمعاصي وتعذيبه إياهم لن ينفعه كما أن

إدخالهم الجنة لن يضره فالله هو الغنى الحميد ، ولولا أنهم استحقوا دخول النار ما أدخلهم إياها ، يقول تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ ١٤٧ — النساء ، ويقول تعالى ﴿ قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ٧٧ — الفرقان .

سادساً : لأن الإجبار على الكفر والمعاصي يتعارض مع إرادة الله التي قضت بأن يترك للإنسان الحرية في العقيدة وأن يختار ما يشاء من الأعمال وخلق له القدرة والإرادة على توجيه نفسه ناحية الخير أو الشر دون إكراه بعد أن بين له طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر ثم يحاسبه على ما قدمت يدها وما اعتنقه من عقيدة ، قال تعالى :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ ٢٥٦ — البقرة .
 ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ٢٩ — الكهف .
 ﴿ أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ٩٩ — يونس .
 ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ٤٦ — فصلت .

مما سبق يتبين لنا أن الله عز وجل من المحال أن يجبر عبده على الكفر والمعصية ثم يعذبه على ذلك للأسباب التي ذكرناها سلفاً .

والذي ينبغي على الإنسان أن يعتقد أن الله عز وجل لو أراد أن يجبر عبده على شيء لأجبره على الإيمان والطاعة لأنه يتفق مع ما يحبه الله ومع رحمته الواسعة ومع الغاية التي خلق الإنسان من أجلها ، تماماً كما أجبر ملائكته والكون بأكمله عدا الإنس والجن على طاعته وعبادته وذلك في قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ ١٨ — الحج .

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ٤٤ — الإسراء .

فإنه عز وجل لو أراد أن يجبر عبده على شيء لأجبره على الإيمان والطاعة ولكنه من المحال أن يجبره على الكفر والمعصية ومصادق ذلك من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ ٩٩ — يونس .
﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ ١٣ — السجدة .

ولفظ (لو) في الآيتين السابقتين تعطى الدلالة على أن مشيئة الله لم تتدخل هداية الناس جميعاً وحملهم على الإيمان والطاعة ولكن لا يمنع ذلك من وجود حالات فردية تدخلت فيها مشيئة الله هداية أشخاص معينين أراد الله لهم الخير والهداية . ولنضرب على ذلك أمثلة بما أجراه الله على يد نبيه ﷺ من معجزات كالشباب الذى جاء لرسول الله ﷺ يطلب منه أن يأذن له فى الزنا ثم بعد أن كلمه رسول الله ﷺ وضع يده عليه ﷺ على قلب الشاب ودعا له فذهبت الرغبة المحرمة من قلبه ولم يجد فيه أثراً مما كان يشعر به وانقلبت مشاعره فصار الزنا أبغض شيء إلى نفسه ، وأيضاً الرجل الذى كان يحمل فى قلبه كفرةً وبغضاً شديداً لرسول الله ﷺ ورفع سيفه يريد أن يقتل رسول الله ﷺ فأصابه برق كاد أن يخطف بصره ووقع السيف من يده فاستدعاه رسول الله ﷺ وأبلغه ما كان من أمره وما كان يحمله فى قلبه فأسلم الرجل ونطق بالشهادتين ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على قلب الرجل ودعا له فذهب ما كان به من الكفر والبغض لرسول الله ﷺ فما كان أحد من البشر أحب إلى قلبه من رسول الله ﷺ .

وكذلك من دعا له رسول الله ﷺ بالهداية مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستجاب الله لنبيه ﷺ وهدى عمر إلى الإيمان والهدى والمحبة لرسول الله ﷺ رغم ما كان عليه من شدة الكفر والفسوق والكراهية لرسول الله ﷺ ، وكذلك كل من ألان الله قلبه فأمن بنبيه فى عصر النبوة أو بما أنزل على نبيه بعد عصر النبوة .

ومن الأمثلة أيضاً أن يسخر الله لعبده من الأسباب ما يترتب عليه تغيراً فى قلبه فينقلب من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهداية ، وهذه لها صور مختلفة ففى عهد الأنبياء والرسل كانت المعجزات الظاهرة تؤدى إلى التحول المفاجئ السريع فى قلوب من أراد الله لهم الخير ، ومن الصور الأخرى أن يسخر الله لعبده رجلاً صالحاً

يدعوه إلى الله أو حدثاً عظيماً يمر به يكون سبباً في هدايته أو رؤية منامية من عند الله تخرجه من ضلاله وكفره وتعيده إلى الرشد والإيمان أو أن يلهمه عملاً صالحاً يقبضه عليه فتختم أعماله بهذا العمل الصالح فيدخل الجنة .

والله عز وجل لا يمنح فضله لمن يشاء من عباده جزافاً أو عشوائياً ولكن يمنح فضله عن علم فهو عليم بقلوب من تفضل عليهم وتقوى نفوسهم وسلامة فطرتهم وأعمالهم التي كانوا سيعملونها لو أمد في آجالهم أو تغيرت ظروفهم في هذه الحياة الدنيا ، يعلم ظاهر أمرهم وباطنه ويعلم أنهم أكثر استحقاقاً لفضله من غيرهم يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٧٣ ، ٧٤ — آل عمران .

وكذلك قوله تعالى ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ٥٤ — المائدة . وتجدر الإشارة إلى أن حمل الله لعبده على الهداية والإيمان تفضلاً عليه ورحمة به وإرادة له بالخير لا تعد إكراهاً ولا تتعارض مع قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ، وذلك لأن الله إذا حمل عبده على الهداية والإيمان فإنه لا يحمله كرهاً بل يحبب ذلك إلى قلبه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ ٧ — الحجرات .

وذلك لأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله يقلبها ويصرفها كيف يشاء ، فالعبد إذا آمن واهتدى بمشيئة الله وفضله فإنه لا يدخل في الإيمان والهداية وهو كاره بل يدخل فيهما عن حب واقتناع .

أما إذا أراد عبد أن يحمل عبداً آخر على الإيمان والهداية جبراً دون إرادة الله ومشيئته فإنه يكرهه على ذلك فيدخل في هذا الأمر كرهاً مكرهاً يظهر الإيمان والهداية تخوفاً ممن حمله على ذلك ويبطن في قلبه ما كان عليه من الكفر والفسوق فقلوب العباد ملكاً لله وحده لا يستطيع العبد أن يغير من قلب عبد آخر إلا أن يشاء الله ، ولذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ويقول له ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ٥٦ — القصص ، ويقول له ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ ٦٣ الأنفال .

المبحث الثامن

إن الإنسان قدر له في علم الله أن يختار بمحض إرادته وحرية بين الإيمان والكفر وبين الخير والشر وبين الطاعة والمعصية فقدر الله له بناء على ذلك مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار فكأنه اختار بمحض إرادته ما قدر له من الجنة أو النار .

ويعنى أكثر شمولاً يمكن القول بأن الإنسان قدر له في علم الله أن يختار بمحض إرادته وحرية أموراً ترتب عليها ما قدر له ، وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان إحاطة كاملة قبل وبعد الاختيار دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم .

عليه يمكن القول أن آدم عليه السلام حين عصى ربه وأكل من الشجرة ، وإبليس حين عصى ربه ورفض السجود لآدم ، إنما اختارا بحريتهما ما قدر لهما . وهنا يظهر الإنسجام بين ما اختاره العبد بحريته وما قدره الرب لعبده جبراً ليس من ارتكابه للمعصية ولكن من أمور ترتبت على ارتكابه للمعصية كالنزل إلى الأرض ، وإنجاب الذرية ، وبعث الأنبياء والمرسلين بالشرائع والرسالات السماوية ، وتفاقم الصراع بين الحق والباطل حتى قيام الساعة ، وما يستتبعه من حساب وجنة ونار ، وكلها كما نعلم أقدار إجبارية قدرها الله عز وجل قبل أن يخلق آدم وإبليس .

وهذه الأقدار الإجبارية لم تكن إلزاماً لآدم وإبليس بأن يفتروا المعصية ولكنها كانت أقداراً إجبارية تعلقت بأمور ترتبت على وقوع المعصية ، أما وقوع المعصية في ذاتها فإنها كانت قدراً إختيارياً اختارها آدم وإبليس بكامل حريتهما دون جبر أو قهر .

والله عز وجل لم يجعل معاصي العباد ضمن الأقدار الإجبارية ولكن جعلها ضمن الأقدار الإختيارية ، كما أنه قضى بأن يكون الحساب والجنة والنار حقائق حتمية ضمن الأقدار الإجبارية ولكنه لم يجعل الأشقياء والسعداء من خلقه الذين يساقون إلى الجحيم أو يفوزون بالجنة خاضعين للأقدار الإجبارية بل جعلهم خاضعين للأقدار الإختيارية حيث يعلم الله ما سيكون من اختيار العباد قبل أن يخلقهم ويأذن لهذا

الإختيار أن يخرج إلى حيز الوجود .

في حديثنا عن آدم وإبليس يمكن القول أنه قدر لهما في علم الله أن يختار المعصية وهذا هو القدر الإختياري ، كما أنه بسبب هذا الإختيار بلغا ما قدر لهما من أمور ترتبت على المعصية وهذا هو القدر الإجباري .

كما يمكن القول بطريقة أكثر شمولاً أنه قدر لهما أن يختار أموراً ترتب عليها ما قدر لهما باعتبار القدر الأول إختيارياً والقدر الثاني إجبارياً وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان قبل وبعد الإختيار دون أن يترتب على ذلك أدنى ظلم .

المبحث التاسع

يقول تعالى ﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ٧٨ ، ٧٩ — النساء .

هذه الآيات الكريمة يختلف تفسيرها تبعاً لنوعية المصائب المذكورة فقد تكون مصائب قدرية إجبارية وقد تكون مصائب قدرية إختيارية ولكنها جميعاً تتلاقى في معنى واحد ومفهوم واحد وهو تنزيه الله عن الظلم ونفى الظلم على الإنسان والإعتراف بقدرة الله النافذة وإحاطته بكل الأمور .

ففي حالة التفسير الأول يمكن القول بأن هناك نوع من المصائب القدرية الإجبارية يصيب الله بها بعض عباده إنتقاماً منهم على ظلمهم وطغيانهم وتكبرهم في الأرض وتمردهم على معصية الله ، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ ، ونفس هذا المعنى نجده في قوله تعالى ﴿ أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ أُنْذِرُكُمْ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١٦٥ — آل عمران ، وأيضاً قوله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ٣٠ — الشورى .

فبرغم أن هذه المصائب أقدار إجبارية من عند الله إلا أنها بسبب ما قدمت أيديهم من معاصي وظلم وآثام .

والقاعدة التي نحتكم إليها دائماً أن ذنوب العباد ومعاصيهم ليست أقداراً إجبارية وإنما هي أقدار إختيارية ، أما ما يترتب على معاصي العباد من لعنة الله وسخطه عليهم وانتقامه منهم وإلحاق المصائب بهم فهي أقدار إجبارية بلا ريب ، وليس بين هذين النوعين من القدر أدنى تعارض أو تناقض بل يتلاقيان معاً في إنسجام تام وهذا من براعة قدرة الله تعالى :

وإذا كان انتقام الله من أهل الكفر والفساد وإلحاق الضرر بهم في بعض شئون حياتهم الدنيا هما من الأقدار الإجبارية فإن القاعدة العامة التي تقتضيها سنة الله تعالى أنه ييسر الرزق ويجزل النعم والعطاء للناس أجمعين المؤمنين منهم والكافرين بما يصلح من شئون حياتهم الدنيا وهذه أيضاً من الأقدار الإجبارية وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ .

والمنفعة والضرر مرجعهما إلى الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿ قل كل من عند الله ﴾ . أما التفسير الثاني لهذه الآيات الكريمة باعتبار أن المصائب المذكورة ضمن الأقدار الاختيارية التي تولدت بسبب سوء اختيار الإنسان وسوء استخدامه لما في أيديه من امكانيات وطاقات يمكن القول بأن الأمور كلها خيرها وشرها بمشيئة الله وإرادته وأن الخير والشر لا ينبغي لهما الحدوث في ملك الله إلا بعد موافقة الله وإذنه وإلا ما حدثا ، فمعنى « قل كل من عند الله » أى قل كل بمشيئة الله وإرادته .

ثم بين الله عز وجل أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما مرجعه إختيار الإنسان بمحض إرادته دون إجبار أو إكراه ولكنه يوضح أن جانب الخير وإن كان باختيار الإنسان إلا أن التوفيق والفضل فيه يعود إلى الله الذى بين للإنسان طريق الخير من الشر ووهبه نعمة العقل والسمع والبصر والفؤاد وأعانه على الهدى والصلاح ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نسند ما يصيبنا من حسنة إلى الله عز وجل تصديقاً لقول الله تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ٥٣ النحل ، وقوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ١٨ — النحل .

وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ .

أما جانب الشر فهو من فعل الإنسان واختياره فإن أصابته سيئة فلا يلومن إلا نفسه ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ١١٨ — النحل ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . ثم تختتم الآيات الكريمة ببيان أن ميزان الخير من الشر والمصباح المنير الذى ينير لنا طريق الخير ويميزه عن طريق الشر إنما هى الرسائل السماوية التى تتمثل فى بعث النبى ﷺ للناس رسولاً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فمن أطاعه واهتدى بهدى رسالته فقد اتبع طريق الخير ومن عصاه وأعرض عن رسالته فقد اتبع طريق الشر .

المبحث العاشر

يقول تعالى ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٨ — القصص .

قد يعتقد البعض أن هذه الآية الكريمة تتناقض في المعنى مع المعاني التي أوضحناها في قضية الجبر والإختيار ولكن لهذه الآية الكريمة معاني ومقاصد أخرى نجملها فيما يلي :

أولاً : إن الله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار لهم من القوانين والتشاريح والأحكام والنظم ما يصلح به شئون دنياهم وآخرتهم ، فالقرآن الكريم هو دستور المؤمنين يقرر لهم أحكام دنياهم كشئون الزواج والطلاق والميراث والقصاص وتحديد العقوبات والعلاقات والإجتماعية بين الأفراد والجماعات ، كما أنه يقرر لهم أيضاً أحكام آخرتهم من عبادات وغيبيات وأمور تتعلق بالحلال والحرام .

وقد وصف الله عز وجل من لم يحكم بما أنزل من الشرائع والأحكام بالكفر والظلم والفسوق في ثلاث آيات من القرآن الكريم ولذلك قال تعالى موضحاً ذلك المعنى ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ٣٦ — الأحزاب .

ثانياً : إن هذه الآية الكريمة التي نحن بصددنا تلقي الضوء على الأقدار الإجبارية التي يقدرها الله لعباده دون مشيقتهم واختيارهم كتبديد أعمارهم وأزواجهم وسعادتهم أو شقائهم وأحجامهم وألوانهم وأشكالهم وصحتهم أو سقمهم ، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أن الله عز وجل يرسل ملكاً إلى عبده وهو جنين في بطن أمه فيكتب له أجله ورزقه وشقى أو سعيد وذكر أو انثى ، ولعل تلك الحقيقة تدخل ضمن قوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ٣٤ — لقمان .

ثالثاً : هذه الآية الكريمة التي نحن بصددنا قد ألفت الضوء على نوع من الإختيار

يتم فيه المفاضلة على أساس الخير فقط وذلك لأن هذه الآية قد جاءت مسبقة بآية تتحدث عن المؤمنين دون غيرهم من سائر الناس حيث يقول تعالى في الآية السابقة لها مباشرة ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ ٦٧ — القصص .

فإن الله عز وجل قد اختار الأمة الإسلامية وجعلها خير أمة أخرجت للناس واختار نبيها وجعله أفضل الأنبياء واصطفاه من بنى هاشم المصطفاه من بنى كنانة المصطفاه من ولد اسماعيل المصطفى من ولد إبراهيم فهو ﷺ خيار من خيار من خيار .
والله عز وجل قد اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، والله قد فضل بعض النبيين على بعض وكان فضل الله على نبينا عظيماً .

والله قد اصطفى مريم ابنة عمران على نساء العالمين واختار بنى إسرائيل وفضلهم على العالمين بأن منحهم متاع الحياة الدنيا وجعل من ذريتهم النبوة وأنزل إليهم التوراة والإنجيل فلما عصوه اختار عليهم العرب وفضلهم عليهم وجعل منهم خاتم النبيين وأفضلهم أجمعين محمد ﷺ على مقت وكرو من بنى إسرائيل وأيده بخير الأديان وأفضل الكتب السماوية وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

والله قد اختار الكعبة المشرفة قبلة للمسلمين خاصة وجعلها أفضل بقاع الأرض ، واختار المسجد الحرام وجعله أفضل مساجد الأرض وأقدمها ، واختار مكة المكرمة وفضلها على سائر البلدان وجعلها أم القرى .

والله تبارك وتعالى قد خلق الأشهر واختار وفضل من بينها شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، وخلق الأيام واختار وفضل من بينها يوم الجمعة وجعله عيداً للمسلمين ، وخلق الليالي واختار وفضل من بينها ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر وأنزل فيها القرآن الكريم ، وخلق الأوقات واختار وفضل من بينها مواقيت الصلوات الخمس ، وخلق القرون واختار وفضل من بينها القرن الذي فيه محمد ﷺ وأصحابه وجعله خير القرون في تاريخ البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾
« صدق الله العظيم » .

الباب الخامس

الفصل الأول الإبتلاء

إن الله عز وجل خلق الإنسان وأودعه هذه الأرض ليبتليه وجعل الدنيا دار ابتلاء ، قال تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ٢ — الملك . وقال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » رواه مسلم .

لقد أهدى الله تبارك وتعالى النفس البشرية فجورها وتقواها وعرفها طريق الهدى من الضلال وطريق الخير من الشر بما أنزله من الكتب والرسالات السماوية ، وخلق للإنسان السمع والبصر والفؤاد لتعينه على ذلك ، وخلق له الإرادة والقدرة على الاختيار وتوجيه نفسه إلى الخير والطاعة والإيمان أو توجيهها إلى الشر والمعصية والكفر ، ثم تركه وشأنه يختار أيهما شاء دون جبر أو إكراه ثم يحاسبه يوم القيامة على ما قدمت يداه بمحض إرادته واختياره إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

لقد قضت مشيئة الله أن يتلى عباده بين حين وآخر بالسراء والضراء على امتداد حياتهم الدنيا لحكم عديدة نذكر منها :

١ — إن درجة إيمان العبد وثباته على عقيدته تظهر عند ابتلائه ، فكم من الناس من يدعى الإيمان بلسانه فإن أصابه البلاء تعرت سريره وانكشف حقيقة ما في قلبه فيظهر المكنون جلياً واضحاً في تصرفاته وعلى لسانه فينفضح أمره ، فإما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً فيما كان يدعيه من الإيمان . يقول تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ — ٣ العنكبوت ، ويقول تعالى ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم ولمحض ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ ١٥٤ — آل عمران ، ويقول تعالى ﴿ ولمحض الله الذين آمنوا ولمحق الكافرين ﴾ ١٤١ — آل عمران .

٢ - من الناس من يزيدهم البلاء إيماناً وثباتاً على العقيدة وصبراً على قضاء الله وقدره ، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ويجاهدون شهوات النفس وهم في ذلك صابرين محتسبين ، صابرين على طاعة الله وعلى اجتناب ما نهى الله عنه وعلى ما يصيبهم من الأذى في سبيل إعلاء كلمة الله والرضا بقضاء الله وقدره .

يقول تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ - آل عمران .

ويقول تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ ١٥٥ - ١٥٧ البقرة

٣ - إن الله عز وجل قد يتلى عباده الكفار أو العصاة بالشر والخير لعلها تكون سبباً في هدايتهم بأن توقف ضمائرهم وتحیی الإيمان الفطرى في أعماقهم ، فلعل الأحداث التي تمر بهم والشر الذي يصيبهم يشعروهم ذلك بأنه من فعل الله الذي يراقبهم وينتقم منهم على كفرهم وجرمهم وظلمهم لأنفسهم وللآخرين فيعتبرون ويتعظون ويرجعون عن كفرهم وبغيتهم أو يتركون معاصيهم ويتقربون إلى الله بالطاعات

ولعل الخير يكون سبباً في هدايتهم أو إقلاعهم عن المعاصي إذا شعروا بأن هذه النعم وهبها لهم إله كريم قادر غنى عنهم . يبارزونه بالكفر والمعصية فيصير عليهم ويرزقهم ويحسن إليهم ولو شاء لأهلكهم فيدخلون ويعتبرون ويتعظون ويتركون ما كانوا عليه من الكفر أو العصيان فيؤمنون بربهم ويستقيم أمرهم . إن حكمة ابتلاء العباد الذين ظلموا أنفسهم بالخير والشر ليرجعوا عن الكفر والمعاصي تتضح في قوله تعالى ﴿ ولولا أنهم بالחסنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ١٦٨ - الأعراف .

أما إذا مر عليهم الإبتلاء فلم ينتبهوا إلى مراد الله منهم ولم يتوبوا ولم يتعظوا ولم يعتبروا وظلوا على ما هم عليه من الكفر والعناد وارتكاب المحرمات فإن الله عز وجل يستدرجهم ويفتح لهم أبواب الخير ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

يقول تعالى :

﴿ أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾
١٢٦ — التوبة .

﴿ أحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبين ، نساوع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ٥٥ ، ٥٦ — المؤمنون .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ ٩٤ ، ٩٥ — الأعراف .

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ ٤٢ — ٤٥ الأنعام .

٤ - إن الله عز وجل قد يتلى عباده المؤمنين بالشر والخير لينظر أى الأمرين أحب إليهم الأهل والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن الطيبة وسائر مباحج الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ، أم الله ورسوله والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه ومجاهدة النفس بالصبر على فعل الطاعات وترك المنكرات ؟ قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتربتموها وتجارة نخشون كسادها ومساکن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ٢٤ — التوبة .

وقال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيهن وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار ﴾ متفق عليه .

فيمتحن في محبته لله ورسوله ، وفي صدق محبته لأخيه المسلم لا يحبه إلا الله ، وفي قوة محبته للإيمان وكراهيته للكفر .

ولقد حذر الله تعالى عبادهم المؤمنين من أن تشغلهم أموالهم أو أولادهم أو أزواجهم عن ذكر الله أو أن يحبونهم أكثر من حبه الله ولفعل الخيرات التي أمر الله بها أو أن يشغلونهم عن فعل الطاعات وترك المنكرات ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ٩ — المنافقون .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ ١٤ — التغابن .

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ ١٥ — التغابن .

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المثاب ﴾ ١٤ — آل عمران .

٥ - إن الله عز وجل إذ أحب عبده المؤمن المذنب ابتلاء بالضراء تعجيلاً لعقوبته في الدنيا وتطهيراً له من الذنوب والخطايا أو رفعاً لدرجته ، بشرط أن يتحلى بالصبر ويرضى بقضاء الله وقدره .

وقد يتلوه بالسراء فيشكره بالقلب واللسان والعبادة والإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين فيرفع الله درجته في الجنة .

أما العبد غير المؤمن فإنه يتلى بالضراء فيسخط على قضاء الله وقدره فيسخط الله عليه ثم يمسك الله عنه الضراء لأنه لم يستفد من هذا البلاء ولم ينتبه إلى مراد الله منه ولم يتعظ ولم يعتبر ولم يتب وظل على ما هو عليه من الإثم ، مثل هذا الشخص لا يطهره الله من ذنوبه بل ربما يستدرجه فيصيبه بالسراء فيتمادى في معصية الله ويستزيد من الذنوب والخطايا حتى إذا كان يوم القيامة حوسب على ما قدمت يداه فبأه بالخيبة والخسران . كل هذه المعاني نجدها في هذه الأقوال للنبي ﷺ :

« ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

« إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى

فله الرضا ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى وقال حديث حسن .
« إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » رواه الترمذى .

﴿ عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

« ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها » متفق عليه .

« ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » متفق عليه .

مما سبق يتضح لنا بأن الله عز وجل لم يظلم عباده بما أصابهم به من البلاء وفتنة الخير و الشر لأن موقف العبد من البلاء يعود إلى إرادته وكامل حريته واختياره .

ويمكننا تلخيص الحكمة من الإبتلاء في النقاط الآتية :

١ - إمتحان صدق إيمان العباد وثبات عقيدتهم وقوة محبتهم لله ولرسوله عما سواهما وتفضيل الآخرة على الدنيا .

٢ - تذكير الكفار والعصاة بربهم لعلهم يعتبرون ويتعظون ويتوبون فيكتب الله لهم الهداية .

٣ - تطهير المؤمن من الذنوب ورفع درجته في الجنة واستدراج من لم يتعظ بالبلاء من الكفار والعصاة حتى يتمادى أحدهم في ذنوبه فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ويحاسبه يوم القيامة على ما قدمت يداه .

٤ - هذا الإبتلاء يرفع أقواماً ويضع آخرين يدل على ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ .
- الأعراف ، إن العبد قد يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيبتلى في آخر عمره فيسخط في الضراء ويتنكر لله في السراء

فيدخل النار ، وإن العبد قد يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيبتلى في آخر عمره فيرضى بقضاء الله وقدره ويصبر في الضراء ويشكر في السراء فيدخل الجنة . وإذا أحب الله عبداً أهله ووفقه إلى عمل صالح يقبضه عليه ويسر له أسباب الصلاح فأثما الأعمال بالخواتيم .

إن ما سبق ذكره يدخل ضمن المقاصد والمعاني التي اشتملت عليها هذه الأحاديث النبوية الشريفة ، قال رسول الله ﷺ :

« إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » رواه مسلم .

« الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » رواه البخاري .
« إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » رواه مسلم .
« إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » متفق عليه .

انقسام الناس إلى ثلاث طوائف عند الإبتلاء :

ينقسم الناس أمام الإبتلاء إلى ثلاث طوائف هي :

(أ) الطائفة الأولى : يفسدها إنقلاب حالها من العسر إلى اليسر ومن الضراء إلى السراء ومن الشر إلى الخير فهم يكفرون بنعمة الله ويطغون على عباد الله ويعرضون عن ذكر ربهم يظنون بذلك أنهم قد استغنوا عن ربهم ثم يعيشون في الأرض فساداً ويرتكبون المعاصي ويتنكبون الحرمات ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ ٦ ، ٧ — العلقم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أُذْهِقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ

منهم برهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿ ٣٣ ، ٣٤ — الروم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونثا بجانبه ﴾ ٥١ — فصلت .

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ ١٢ — يونس .

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ ٨ — الزمر .

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنديقنهم من عذاب غليظ ﴾ ٥٠ — فصلت .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ ٢١ — يونس .

﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ ٢١ — المعارج .

(ب) الطائفة الثانية : يفسدها إنقلاب حالها من اليسر إلى العسر ومن السراء إلى الضراء ومن الخير إلى الشر فهم يسخطون على قضاء الله وقدره ويقنطون من رحمة الله ، قال تعالى عن هؤلاء :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ ٩ — هود .

﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ ٣٦ — الروم .

﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ ٤٨ — الشورى .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ ١٦ — الفجر .

﴿ لا يستم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه فيئوس قنوط ﴾ ٤٩ —

فصلت .

﴿ وإذا مسه الشر كان يقوسا ﴾ ٨٣ — الإسراء .

﴿ إذا مسه الشر جزوعاً ﴾ ٢٠ — المعارج .

(ج) الطائفة الثالثة : هى طائفة المؤمنين لا يتزعزع إيمانهم برهم إذا انقلبوا من حال إلى حال فهم شاكرون فى السراء ، صابرون فى الضراء ، راضون بقضاء الله وقدره ، هؤلاء هم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

من أجل ذلك فقد قضت مشيئة الله ألا يترك العباد حتى يبتليهم بالشر والخير فتنة قال تعالى ﴿ ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ — ٣ العنكبوت ، وقال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ — الأنبياء . والجنة هى سلعة الله الغالية لا يدخلها إلا من مكان أهلاً لها ، من ابتلاه الله فثبت على إيمانه ورضى بقضاء الله وقدره ، لأنها دار النعيم المقيم التى أعدها الله للمتقين من دخلها فلا يخرج منها أبداً ، ويحيا فلا يموت أبداً ، ويسعد فلا يشقى أبداً ، ويأمن فلا يخاف أبداً ، لا يصيبه مرض ولا هرم ولا يمسه تعب ولا جوع ولا عطش ، أعد الله فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هى دار الكرامة من دخلها فقد فاز ومن حرمها فقد خسر وخاب .

قال تعالى : ﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ١٤٢ — آل عمران ، إن الله عز وجل يرفع بهذا الإبتلاء أقواماً ويضع آخرين مصداقاً لقوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ ١٥٥ — الأعراف ، والله عز وجل له أن يبتلى من يشاء من عباده ولم يظلم من فشل فى الإبتلاء منهم فأدخله النار لأنه لم يجبره على الكفر والمعصية بل جعله يتعامل مع الإبتلاء بكامل إرادته وحرية واختياره ، قال ﷺ « إن الله من على قوم فألهمهم الخير فأدخلهم فى رحمته ، وابتلى قوماً فخذلهم وذمهم على أفعالهم ولم يستطيعوا غير ما ابتلاهم فعذبهم وهو عادل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

الفصل الثاني

الرزق

« على ضوء قضية الجبر والاختيار ».

يجب أن نعلم أن العمل ليس إلا وسيلة وقرباناً نتقرب به إلى الله ليرزقنا وليؤتينا من فضله وعطائه ، فالعمل ليس هو رزقنا وإنما الرزق الحقيقي هو الله جل شأنه ، ومن أجل ذلك فإن العمل مطلوب والرزق مقدور ومكتوب ، وهذا هو المعنى الذى تتضمنه الحكمة القائلة : « الجوارح تعمل والقلوب تتوكل » ، فنحن نعمل ونبدل الجهد وتأخذ بالأسباب ولكننا فى عملنا هذا نتوكل على الله بقلوبنا ونتضرع إليه أن يقبل منا هذا العمل وأن يجعله عملاً مثمراً يأتى بالرزق منه سبحانه .

والعمل قد يثمر وقد لا يثمر ، ولكن سنة الله قد قضت فى كثير من الحالات ألا يصيب عبده بالرزق إلا إذا وجد منه العمل الجاد والأخذ بالأسباب ، فقد نهى رسول الله ﷺ عن القعود عن طلب الرزق ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولكى يبين الله لعباده أنه هو وحده الرزاق وأن العمل ليس إلا وسيلة لطلب الرزق وأن إرادته ومشيقته لا تخضع للأسباب والمسببات نجد أن المزارع قد يعمل ويبذل الجهد آخذاً بالأسباب ، حتى إذا تمت الزراعة ونمى المحصول أصابته آفة حشرية أو إعصار أو فيضان فاقتلعه وهلك بأكمله ، ومرد ذلك أن الله لم يقدر له ذلك الرزق رغم عمله الشاق المتواصل ، أما الحكمة التى من أجلها فعل الله ذلك فلا يعلمها إلا هو سبحانه .

وعلى النقيض من ذلك ، قد نجد بعض البلاد ذات الشعوب الفقيرة التى لا تمارس إلا العمل المحدود فى بيئة صحراوية لا تعتمد إلا على رعى الماشية كمصدر للكسب الضئيل نجدها وقد تفجرت أراضيها بالبتروى وأصبحت من أغنى شعوب العالم تعيش عيشة رغيدة مترفة .

ويصدق هذا المثل أيضاً على الرجل العاقل أو الفقير الذى يسوق الله إليه الرزق من الإرث فيقلب غنياً من الأغنياء ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ٢٦ — الرد .

ولقد ضرب الله لنا مثلاً رائعاً بقصة هاجر مع ابنها إسماعيل عليه السلام عندما أخذت تسعى بين الصفا والمروة ، وكان لهذا السعى منزلته عند الله فجعله الله من شعائره ، وعلمنا من هذه القصة دروساً وعظات .

أول هذه الدروس التى تخدم قضية الرزق هو إيمان هاجر بأن الله هو وحده الرازق ، فحينما تركها زوجها إبراهيم عليه السلام وترك معها ابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام فى أرض عراء لا زرع فيها ولا نبات وعلمت أن الله متكفل برزقهما ، اطمئن قلبها ورضيت بهذا المكان مسكناً لها ولم يمسسها خوف أو ارتياب .

أما الدرس الثانى فهو الحث على طلب الرزق ، فبرغم إيمان هاجر بأن ربها هو الرازق ، وبرغم ثقتها الكاملة فى الله ، إلا أنها أخذت تسعى فى طلب الرزق مستخدمة كل الطاقات والإمكانات والأسباب المتاحة لها ، فجوارحها تعمل وقلبها متوكل على الله ، أخذت تسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط طلباً للماء ، واثقة أن الله سيهديها إليه وينجيها وابنها من الهلاك .

أما الدرس الثالث فهو إثبات من الله بأنه هو وحده الرازق ولا رازق سواه ، فقد شئت حكمة الله ألا يأتى الرزق نتيجة ما بذلته هاجر من سعى وعمل حتى لا يعتقد بعض الناس أن العمل هو الرازق ، أو أن الرزق هو النتيجة الحتمية للعمل ، فقد فجر الله ينابيع الماء من بين أصابع قدمي إسماعيل عليه السلام وهو حينذاك طفل رضيع لا حول له ولا قوة .

نستخلص مما سبق أن العمل مطلوب ولكنه ليس إلا وسيلة لطلب الرزق ، أما الرازق الحقيقى فهو الله جل شأنه ومشيئته لا تخضع للأسباب والمسببات .

وإلى الذين يعتقدون بأن العمل هو الرازق نسوق لهم هذا الحديث القدسى ، حيث يقول تعالى :

﴿ يا ابن آدم إن رضيت بما قسمت لك ، أرحمت قلبك وبدنك ، وإن لم ترض بما قسمته لك ، فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها كركض الوحش في البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندي مذبوماً ﴾ .

أما الأدلة القرآنية التي تؤكد أن الرزق من عند الله وحده ، وأنه إجباري لا اختيار فيه ، فهي قوله تعالى :

﴿ الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ٢٦ — الرعد .

﴿ أس هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوا في عتو ونفور ﴾ ٢١ — الملك .

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ٦ — هود .

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ ٦٠ — العنكبوت .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ ٢ — فاطر .

أما الأدلة من السنة النبوية الشريفة فهي قول النبي ﷺ « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

وقد ورد عن النبي ﷺ : أن الله يرسل ملكاً لعبده وهو جنين في بطن أمه ، فيكتب له رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .

قال رسول الله ﷺ « إن أحدم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » متفق عليه .

ومن أدعية النبي ﷺ قوله : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » متفق عليه .

كما أسلفنا فإن الرزق مقدور ومكتوب ومحدد وقد تكفل الله تعالى بأرزاق العباد ، ولكنه جل شأنه جعل لهذه الأرزاق أسباباً نذكرها فيما يلي :

١ - العمل والسعى والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله وتحصيل الرزق ، يقول تعالى ﴿ وَأَخْرَجُوا فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ٢٠ - المزمّل ، ويقول تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُور ﴾ ١٥ - الملك .

٢ - سعى الرجل على من يعول كوالديه وزوجه وأولاده ومن يحتاجون إليه من أقربائه وكذلك الإنفاق على طالب العلم .

قال رسول الله ﷺ « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » متفق عليه ، وقال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك » متفق عليه :

قال تعالى ﴿ لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عسرٍ يسراً ﴾ ٧ - الطلاق .

(كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ « يتلقى العلم من مجلسه ﷺ » والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : لعلك ترزق به) رواه الترمذى باسناد صحيح على شرط مسلم .

٣ - حسن التوكل على الله لقوله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » رواه الترمذى وقال حديث حسن وهذا الحديث فيه دعوة إلى العمل وعدم التكاسل والقعود عن السعى وطلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق ، فهي تسعى للبحث عن الرزق وقلبها مطمئن بالفطرة بأن الله سيرزقها مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ٦ - هود .

وكذلك الإنسان لو توكل على الله حق التوكل بأن سعى في طلب الرزق آخذاً بالأسباب وقلبه مطمئن بأن الله سيرزقه فإن حسن توكله على الله وحسن ظنه بربه سيكونان سبباً من أسباب الرزق .

٤ - الهجرة في سبيل الله ، فإذا هاجر العبد فراراً بدينه من بلاد الكفر حتى لا

يفتن في دينه ويحارب في عقيدته يفتح الله له أبواب الرزق ، يقول تعالى ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ١٠٠ - النساء .

٥ - الجهاد في سبيل الله ، والرغبة في الزواج من أجل التعفف ، ورغبة المكاتب في الأداء ليُشحر من الرق ، جميعها تعد من أسباب سعة الرزق

قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيمنى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ ٣٢ - النور .

وقال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف » أخرجه الترمذى والنسائى

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » أخرجه أحمد والترمذى

٦ - تحول العباد من الكفر إلى الإيمان يعد سبباً من أسباب سعة الرزق ، يقول تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكم كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٩٦ - الأعراف .

ويقول تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ٦٦ - المائدة .

٧ - الشكر على النعمة بالقلب واللسان وفعل الطاعات وترك المحرمات والإنفاق في سبيل الله يعد سبباً من أسباب سعة الرزق ، كما أن كفر النعمة يعد سبباً من أسباب ضيق الرزق أو زواله ، يقول تعالى ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ٧ - إبراهيم .

ويقول تعالى ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ ١١٢ - النحل ، ولقد أشارت الأحاديث النبوية إلى ذلك ، قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » ، وقوله ﷺ « وما منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم ما أمطروا » .

أما عن الإنفاق في سبيل الله بصفته أحد أسباب سعة الرزق ، يقول الله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ ٣٩ — سبأ .

كما ورد عن رسول الله ﷺ عدة أحاديث منها قوله :

« ما نقص مال عبد من صدقه » رواه مسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح وهو يتفق في معناه مع الآية سألته الذكر ، « قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك » متفق عليه ، « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً » متفق عليه .

٨ - التقوى من أسباب سعة الرزق لقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ٢ ، ٣ — الطلاق .

كما أن شدة إيمان العبد وقربه من ربه وإخلاصه له وانشغاله بعبادته تعد من أسباب الرزق ، بل إن الله عز وجل يكفيه مؤنونه ويرزقه من حيث لا يحتسب ، قال تعالى عن مريم ابنة عمران رضى الله عنها ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ٣٧ — آل عمران .

٩ - كثرة الاستغفار تعد من أسباب سعة الرزق ، قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ ١٠ — ١٢ نوح

وقال رسول الله ﷺ « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود .

١٠ - الدعاء بالرزق يعد من أسباب الرزق فقد ورد من أدعية النبي ﷺ قوله « اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى » رواه مسلم .

قال الله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ ٦٠ — غافر .

ومن شروط قبول الدعاء ألا يستعجل العبد الإجابة لقوله ﷺ « يستجاب

لأحدكم ما لم يعجل يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي » متفق عليه .
وإذا كان الدعاء أحد أسباب الرزق فإن الدعاء لا يستجاب من العبد إلا إذا كان رزقه حلال مطعمه ومشربه وملبسه .

قال رسول الله ﷺ « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » ، وقال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » رواه مسلم .

١١ - صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، يقول رسول الله ﷺ « من أحب أن ييسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » متفق عليه .

١٢ - إن العبد قد لا يأخذ بهذه الأسباب السابق ذكرها ومع ذلك ييسط الله له الرزق ، وقد يأخذ بها ولكن الله يمسك عنه الرزق والسبب من وراء ذلك الإبتلاء . يقول تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ٣٥ - الأنبياء .

والحكمة من وراء هذا الإبتلاء إمتحان صدق إيمان العباد فإن صبروا على الضراء وشكروا في السراء ورضوا بالقضاء فلهم من الله الرضا ورفع الدرجات وزيادة الحسنات ومحو السيئات ، وإن كفروا بأنعم الله وسخطوا بالقضاء فلهم من الله السخط وسوء الحساب .

وقد يتلى الكافر والعاصي بسعة الرزق أوضيقه لعله يتذكر فيرجع عن كفره ومعاصيه .

١٣ - إن الله إذا أراد أن يستدرج عبده بسط له في الرزق فيكون عليه نعمة في الدنيا والآخرة . قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدي متين ﴾ ١٨٢ ، ١٨٣ - الأعراف .

وقال تعالى ﴿ أيحسبون أنما نغدhem به من مالٍ ونين ، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ٥٥ ، ٥٦ - المؤمنون ، وقال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ٨٥ - التوبة .

وقال رسول الله ﷺ (إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما

يجب فإنما هو استدراج ثم قرأ « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » (أخرجه الإمام أحمد .

والله في تحديد الأرزاق وتوزيعها بين العباد حكم بالغة لا يمكن حصرها والإحاطة بها . وطالما أن العبد المؤمن متيقن بأن رزقه من عند الله وحده وأنه مكتوب ومقدر فإن الواجب الديني يطالبه أثناء سعيه لطلب الرزق والأخذ بأسبابه أن يضع نصب عينيه ثلاثة أمور هي :

١ - أن يسعى لطلب الرزق الحلال الطيب ويتجنب الرزق الحرام ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم تعبدون ﴾ ١٧٢ - البقرة ، وقال ﷺ « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خنوا ما حله ودعوا ما حرم » .

٢ - ألا يشغله طلب الرزق ولو كان حلالاً عن ذكر الله وأن يحذر من الافتتان بحب المال والحرص على جمعه وأن يكون ذلك أكبر همه وشاغله الأكبر ، فالعقل يجب أن يعلم بأن طلب الرزق وجمع المال ليس غاية وإنما وسيلة للتعفف والتقرب إلى الله بالطاعات وأن حبه وهمه الأكبر يجب أن يكون متعلق بذكر الله والتزود لما بعد الموت وإثارة الحياة الباقية على الحياة الفانية ، يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ٩ - المنافقون .

ويقول تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوابكم ﴾ ٢٤ - التوبة ، ويقول تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين ﴾ ١١ - الجمعة .

٣ - إذا كان له حاجة عند أحد من الناس فليطلبها بعزة نفس ولا يهن نفسه ولا يذلها فإن الأمور تسير بمقاديرها .

قال رسول الله ﷺ « أطلبوا حوائجكم بعزة فإن الأمور تسير بمقاديرها » .

الفصل الثالث

الزواج

« على ضوء قضية الجبر والاختيار »

هناك حقائق ثابتة يجدر الإشارة إليها وهي :

١ - لا ينبغي للإنسان العاقل أن يتزوج بعلمه واختياره من إحدى العاهرات اللاتي لا دين ولا حياء ولا أخلاق لهن ، ثم يفترى على الله الكذب بعد ذلك ويرغم أن الله ألزمه بهذا الزواج وأجبره عليه فلا حيلة له لدفع هذا القدر ولا مفر منه .

٢ - لقد حض رسول الله ﷺ على اختيار الزوجة التي تتوفر لديها صفات التقوى والصلاح فقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم ، واستنكر على الرجل أن ينكح المرأة لما لها أو لجمالها أو لحسبها ونسبها فقد ورد عنه أنه قال :

« تنكح المرأة لأربع : لما لها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاطفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه .

« من تزوج امرأة لما لها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءه ، ومن تزوجها ليغض بها بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه ابن حبان .

« لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين » رواه عبد بن حميد .

« إياكم وخضراء الدمن ، قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدار قطنى .

وفي المقابل فإن رسول الله ﷺ حض الرجل على اختيار المرأة الصالحة ، قال رسول الله ﷺ :

« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم .

« ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء ؟ المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في عرضه وماله » رواه أبو داود .

« من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح ، ومن شقاة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء » رواه أحمد بسند صحيح .

« من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الباقي » رواه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد .

ويضع رسول الله ﷺ تحديداً للمرأة الصالحة بأنها الجميلة المطيعة البارة الآمنة فيقول « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » رواه النسائي وغيره بسند صحيح

٣ - وما ينطبق على الرجل ينطبق أيضاً على ولي أمر المرأة فإنه لا ينبغي له أن يزوجه باختياره من رجل لا دين ولا حياء ولا أخلاق له وتوافقه المرأة على ذلك ، ثم يفتريان على الله الكذب بعد ذلك ويزعمان أن الله عز وجل ألزمهما بهذا الزواج وأجبرهما عليه فلا حيلة لهما لدفع هذا القدر ولا مفر منه . من الملاحظ في هذا العصر بالذات أن معظم الأسر في جميع المجتمعات الإسلامية للأسف الشديد يختارون لابنتهم الرجل الذي لديه المال أو الجاه أو الجمال أو العلم الدنيوي أو الشهرة كأن يكون فناناً أو رياضياً مشهوراً أو ينتمى لأسرة بارزة في المجتمع ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يكون فاجراً أو فاسقاً ليس له خلق ولا دين ولا أمانة ، لقد ظنوا أن سعادة ابنتهم مع مثل هذا الرجل وهذا إعتقاد خاطيء لأن هذه الصفات جميعها أو إحداها إذا توفرت في رجل ليس عنده خلق ودين فسوف تجعل منه في أغلب الأحيان رجلاً مغروراً متكبراً أنانياً سىء الطبع يسىء معاملة زوجته ومعاشرتها وقد يتجه إلى حياة اللهو والفسوق فلا تشعر زوجته معه بالسعادة والطمأنينة والأمان .

إن الإسلام لا يمنع المرأة أو ولي أمرها من اختيار الرجل الذي يجمع بين الخلق والدين وبين المال أو الجاه أو الجمال أو العلم الدنيوي فكثير من الشباب على مثل

ذلك والحمد لله ، المهم ألا تخلو صفاته من الخلق والدين لأنه بلاشك سيتقى الله فيها فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها ، وإن كره منها خلقاً رضى منها غيره .

قال رسول الله ﷺ « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمة » رواه ابن حبان .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ باختيار الرجل الذى يتحلى بالخلق والدين فقال ﷺ « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » رواه الترمذى ، وفى رواية « وفساد كبير » ، وتوضيحاً لهذا الفساد أن الأسر إذا أغلقت أبوابها فى وجه من لا يملك سوى الخلق والدين ولم يجد من يزوجه فربما افتتن فى دينه واتجه إلى طريق الانحراف الجنسى أو اللجوء إلى الوسائل غير المشروعة لتحقيق الثراء أو الجاه اللازم للزواج إذا وجد نفسه مضطراً إليه ليغض به بصره ويحصن فرجه ، وسيعزف كثير من الشباب عن التمسك بالقيم الدينية والأخلاقية لأنها لن تحقق له الاستقرار العائلى من وجهة نظر المجتمع الذى يعيش فيه وسيصرف جل اهتمامه ووقته لتحقيق المال والعلم الدنيوى ليتزوج من شاء من النساء ويهدم ما بينه وبين ربه ولا يتزود بالعلم الدينى فيصدق عليه قوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ٧ — الروم ، وهذا هو شأن من اكتفى بتحصيل علوم الدنيا وترك العلم الدينى ، وبذلك تنهار المثل العليا فى المجتمع عامة وبين الشباب خاصة إلا من رحم الله .

كما أن ولى أمر المرأة إذا أنكحها لرجل عنده الدنيا وليس عنده شيئاً من الدين والخلق فلن يتقى الله فيها وبذلك تنقلب حياتهما إلى تعاسة وشقاء وينعدم بينهما الحب والإخلاص ، وفى ظل ذلك كله إما أن يفتنها فى دينها وأخلاقها فتكتسب منه كثيراً من صفاته المذمومة وسوء خلقه وقد تقلده وتنحرف مثله ، وإما أن يمنعها دينها وحياتها من مجاراةه فتصير على هذه الحياة التعيسة على مضض حفاظاً على مستقبل أولادها من التشرد ، وإما أن تنتهى حياتهما بالطلاق وما يترتب عليه من الضياع والتشرد لها ولأولادها .

ومعلوم أن الأولاد إذا انعدمت لديهم القدوة الصالحة والمثل العليا فى الأب أو الأم

أو الاثنين معاً اكتسبوا سوء الخلق وقلة الوازع الدينى ، وإذا عانوا من كثرة الخلافات بين الأب والأم وما قد تسفر عنها من طلاق وتشرد فإن ذلك يؤثر في سلوكياتهم النفسية والاجتماعية .

ما سبق ذكره يعد إيضاحاً لمعنى الفتنة والفساد الكبير الذى حذر منه رسول الله ﷺ « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وإذا كان من الواجب على المرء حسن اختيار صديقه ، ومجالسة الجليس الصالح وليس الجليس السوء ، ومؤكلة التقى وليس الفاجر وخاصة داخل بيته ، وهذه أمور حرص عليها الإسلام وأمر بها ، فإن حسن اختيار الرجل لزوجته والمرأة لزوجها أولى وأوجب نظراً لثلاثة العلاقة الزوجية التى ستربط بينهما وطول المعاشرة والمجالسة والمؤكلة التى ستجمع بينهما وتأثر أولادهما فيما بعد بالسلوك الأخلاقى لكل من الأب والأم فضلاً عن إمكانية التأثير السلبى لأحد الزوجين بالآخر .

قال رسول الله ﷺ « الرجل على دين خليله فلينظر أحدهم من يخال » رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح ، وقال « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » رواه أبو داود والترمذى باسناد حسن ، وقال « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن يتباع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » متفق عليه .

٤ - إن هذا الإرشاد والتحذير الذى امتلأت به جميع الأحاديث النبوية سالفه الذكر والتى تدعو إلى ضرورة اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة على أساس من الخلق والدين هو أكبر دليل على أن اختيار الإنسان له دخل في أمور زواجه وأنه يسيرجنباً إلى جنب مع مشيئة الله .

٥ - إن المؤمن الصادق هو الذى يجد في المرأة ذات الخلق والدين الإشباع الكامل لعقله وفؤاده وهواه ، لأنها تشاركه حلاوة الإيمان ، وصفاء النفس ، ونقاء الجوهر ، وحسن الخلق ، وسيبنى اختياره الحر على هذه الدعائم والأنسب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ ٢٦ - النور .

ومن أجل ذلك نجد أن الرجل المؤمن الصادق إذا تزوج امرأة لدينها وأخلاقها ثم تبين له بعد زواجه منها أنها ليست أهلاً لذلك ، أو تزوجها دون رغبته واختياره فإن حياتهما ستعتمد فيها السعادة والتفاهم والطمأنينة والاستقرار نظراً لاختلاف الميول والأهواء ، مما يؤدي حتماً إلى التعاسة والشقاء والنزاع الدائم المستمر الذى قد يؤدي إلى الطلاق .

أما الرجل الذى ليس له خلق ولا دين فلن يجد الإشباع الكامل لعقله وفؤاده وغرائزه إلا فى المرأة التى تشاركه تلك الصفات ، وسيختار المرأة التى يجد من تصرفاتها وسلوكها الباطل ما تنهوه نفسه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ ، وسيختارها لجمالها أو لما لها أو لحسبها ونسبها .

وإذا تزوج هذا الرجل من امرأة ذات خلق ودين ، فإن اختلاف أخلاقهما وميولهما سيؤدي حتماً إلى الشقاء والنزاع ، وقد يؤدي إلى الطلاق .

٦ - للعبد أن يختار بحريته من يشاء ، فإذا شاء الله لهذا الاختيار أن يثمر حدث الزواج ، وإذا لم يشأ الله لم يحدث .

فهو اختيار حر من العبد ، وعلم سابق من الله بما سيختاره العبد ، ومشقة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد أو لا يحدث .

وإذا قدر الله لعبده أن يتزوج امرأة بعينها أحدث انسجاماً بين اختيار عبده وإرادته جل شأنه لهذا الزواج أن يحدث ، فكان ما اختاره العبد بحريته هو عين ما قدره الله له .

٧ - إن الله قد شرع للبكر أن تستأذن ، وللثيب أن تستأمر إقراراً بحق المرأة فى الاختيار ، وهذا دليل على أن الاختيار ضرورى للزواج ، وأنه حق مشروع للإنسان بنوعيه

وإذا كان الطلاق هو أبغض الحلال عند الله ، فلا يمكن للحدث البغيض أن يجبر الله عليه عبده أو يكرهه عليه ، ولكنه أيضاً يتم باختيار الإنسان ويسير هذا الاختيار جنباً إلى جنب مع مشيئة الله .

٨ - من الأمور المستثناة والتي يجب التنويه عنها أن زواج رسول الله ﷺ تم أكثره بمشيئة الله وحده نظراً لأهمية هذا الحدث وأثره في العقيدة الإسلامية وفي دعم أسس الدين وأحكامه .

ليس هذا فحسب ، بل إن زواج رسول الله ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش ، قد تم بأمر من الله لا اختيار للنبي ﷺ في ذلك ، فما يكون له أن يعصى لله أمراً ، فقد كانت زينب زوجة لزيد بن حارثة الذي تبناه رسول الله ﷺ ، وكان من عادة قريش أن الرجل لا يحل له أن يتزوج امرأة ابنه من التبنى مثله كمثل الإبن الحقيقي ، فأراد الله أن يبطل هذا الاعتقاد والعرف الخاطيء ، فأمر نبيه ﷺ بهذا الزواج ونزل قوله تعالى :

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً ﴾ ٣٧ - الأحزاب .
وزوجات النبي ﷺ كما نعلم كلهن أمهات للمؤمنين يحرم على المؤمنين التزوج منهن ، ولذلك فقد اختارهن الله وأحصاهن عدداً .

وقد فوض النبي ﷺ أمر زواج ابنته فاطمة الزهراء إلى الله عز وجل فاختار الله على بن أبي طالب كرم الله وجهه زوجاً لها .

٩ - إذا كان لاختيار العبد شأن في زواجه كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، فإنه مما لا شك فيه أن الأمور المترتبة على الزواج كالعقم ، والانجاب ، ونوع الذرية ، وعددها ، وأحجامها ، وتكوينها ، وألوانها ، وأعمارها ، وأرزاقها ، وتحديد موقعها من السعادة أو الشقاء ومن الهداية أو الضلال ، كلها أمور تتم بمشيئة الله وحده دون تدخل لمشيئة الزوجين واختيارهما مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾ ٤٩ ، ٥٠ الشورى .

سلوك المسلم المؤمن (على ضوء قضية الجبر والاختيار)

بعد أن فرغنا بحمد الله من عرض قضية الجبر والاختيار ، فإنه من الواجب على المسلم المؤمن أن ينقى قلبه وسريته مما يغضب الله ، وأن يفعل الخير ويسعى في سبيل طاعة الله ومرضاته مهتدياً بكتاب الله وسنة نبيه ، متوكلاً على الله غير متواكل ، مستغلاً في قضاء حوائجه الدنيوية ما منحه الله من طاقات وإمكانات ، باذلاً ما في وسعه من الجهد والعرق والعمل الجاد المتواصل لتحقيق السعادة لنفسه وللآخرين ، متحلياً بالصبر والثابرة وقوة التحمل فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، داعياً الله أن يكلل مساعيه بالتوفيق والفلاح .

وإن خائته الأسباب وعجز عن الإتيان بشيء ليس في استطاعته إلتجأ إلى خالق الأسباب والمسببات الذى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لكى يجد عنده مخرجاً من الهم والكرب محققاً بذلك حسن التوكل على الله بأسمى معانيه الأمر الذى يختلف تماماً عن التكاثر والتواكل ، واثقاً من توفيق الله له ، صابراً على ما يصيبه من شدائد وأهوال ، مؤمناً بقضاء الله وقدره ، فاعلاً الخير كل الخير ، مبتعداً عن الشر كل الشر ، تاركاً مصيره لله تعالى لا يهتم إن كان مسيراً في بعض الأمور أم مخيراً فيها ، واثقاً من عدالة الله المطلقة وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وأنه لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس هم الظالمون .

كلمة حق

بعد أن هدانا الله إلى الكشف عن بعض الحقائق المتعلقة بموضوع الجبر والاختيار ، أفلا يجدر بنا أن نقنع بقوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ بدلاً من الخوض في متاهات ذلك الموضوع المترامي الأطراف الذى يتضمن عديداً من الأسرار والحكم الإلهية لا يعلمها إلا الله ولا يمكننا الكشف إلا عن قدر يسير منها نتكبد في سبيله كثيراً من الإرهاق الذهني والتفكير المضنى ثم لا نصل في نهاية المطاف إلا إلى حقيقة واحدة أجمعت عليها أطراف ذلك الموضوع المتشابك بما فيه من أسرار وحكم وهى ما ذكرته الآية الكريمة ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

« ملخص »

ما ورد في هذا البحث

حول موقف الإنسان إزاء قضية الجبر والاختيار

هل الإنسان مسير أو مخير ؟

١ - الله يريد الخير والشر على السواء ولكنه يحب الخير ويكره الشر ولا يرضى إلا عن الخير فقط .

٢ - إن الله يريد للشر أن يحدث حتى يقيم الحجة على المذنب يوم القيامة ، وحتى يجد الخير مجالاً واسعاً لممارسة نشاطه في الحياة الدنيا ، وحتى تتحقق أسماء الله وصفاته على خلقه ، فهو الغافر للذنوب القابل للتوب ، ورُب شر يعود بالخير على من أصيب به .

٣ - إن الله يأذن للمعصية أن تحدث إذا وجد عبده عاقداً العزم على الإتيان بها ويترك المبادرة بالنية دائماً لعبده ثم يختم على قلبه بالهداية أو الضلال وفقاً لما أضمره عبده في قلبه .

٤ - إن الله عز وجل قد أمد النفس البشرية حين خلقها بقسط متساوٍ من التقوى والفجور ، وحدد لها مصادر الخير والرضوان متمثلاً في التعاليم السماوية ، فإذا ارتقى الطفل في النمو إختل ميزان الخير والشر ، فمن النفوس من ترتقى إلى الصفات الملائكية حيث الروحانية والشفافية ، ومنها من تهوى إلى الصفات الحيوانية حيث الشهوة والرذيلة ، وبين هذين النوعين من الصفات درجات متفاوتة من الصلاح أو الفساد .

٥ - إن الإنسان مخير فيما يحاسب عليه يوم القيامة من خير أو شر ، وما يأتي به من أعمال تجلب له الحسنات أو السيئات ويتحدد به مصيره إن كان من أهل الجنة أم من أهل النار ، إذ لا يعقل أن يحاسبه الله على عمل أجبره على تنفيذه إجباراً .

٦ - إن الله عز وجل قد امتلك قلوب العباد ووضعها تحت تصرفه يوجهها ناحية الهدى أو الضلال وفقاً لما يديه العباد من الأفعال وما يكتُمونه من النوايا التي تنم عن الهدى أو الضلال باعتبارهم المسئولون وحدهم عن تلك الأفعال والنوايا .

وبالرغم من أن الله عز وجل هو الموجه للقلوب فإن العبد يُسأل يوم القيامة عن سلامة قلبه كما جاء في قوله تعالى ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ، وذلك لأن سلامة القلب وعمارته بالهدى والإيمان هي النتيجة الحتمية المترتبة على استقامة العبد في سره وعلايته ، وتلك الاستقامة في السر والعلاية هي من مسئولية العبد وحده وباختياره وحده بدليل قوله تعالى ﴿ويعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ . فإذا أصلح العبد من علاقته وسره هدى الله قلبه وأضاهه بالإيمان ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن طابت سريرته واستقامت علاقته » .

٧ - إن علم الله الأزلي قد سبق قضاءه وقدره وخلقه للأشياء وذلك لأن العلم صفة من صفات ذات الله أما القضاء والقدر والخلق فهي أثر من آثار صفاته تعالى التي هي العلم والإرادة والقدرة .

وتطبيقاً لذلك فإن الله قد علم موقف عبده من العمل الصالح ومن الدعاء المستجاب قبل أن يقدر له مصيره وقبل أن يخلقه فجاءت أقدار العباد وفقاً لأعمالهم وأدعيتهم فعلى قدر ما يتقربون به من الله تتحدد أقدارهم ومصائرهم ، فكأن الإنسان يستطيع أن يرسم لنفسه طريق السعادة أو الشقاء وفقاً لما يقوم به من الأعمال وما يتضرع به من الدعوات الصادقة .

٨ - هناك نوعان من القدر قدر اختياري وقدر إجباري فالقدر الاختياري هو ذلك النوع من القدر الذي تتدخل فيه مشيئة الإنسان جنباً إلى جنب مع مشيئة الله ، وهو عبارة عن علم ومشيئة ، علم سابق من الله بما سيختاره العبد بحريته من خير أو شر ومشيئة من الله بأن يحدث ما اختاره العبد فيبرز إلى حيز الوجود .
والقدر الاختياري بتعريف آخر هو ما حدث بقصد منك وتعمد سواء أكان خيراً أم شراً .

أما القدر الإجبارى فهو ما أصابك من حيث لا تدري دون إرادة منك أو تعمد سواء أكان خيراً أم شراً ، وليس فى هذا النوع من القدر مجالاً لاختيار العبد بجانب مشيئة الرب .

والعقل هو مركز اختيار العبد وهو مناط التكليف والمساءلة من الله أما باقى أعضاء الجسم فهى مسيرة ، وإذا كان العقل ذاهباً أو مهملاً أو قاصراً رفع التكليف والمساءلة عن العبد وهذا هو حال المجنون والنائم والصبى الصغير مصداقاً لقول النبى عليه الصلاة والسلام « رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » رواه أحمد وأبو داود والحاكم .

٩ - ومن روائع قدرة الله وحكمته حدوث نماذج متعددة لصور الانسجام بين الجبر والاختيار ، وبين الأقدار الإجبارية والأقدار الاختيارية ، بحيث لا توجد تناقضات بين الاثنين وبحيث يتعانقان ويتلاقيان معاً فى النهاية فى خط واحد ومفهوم واحد .

وهذا الانسجام أمر لا بد منه حتى يحدث التنسيق بين جوانب الحياة المختلفة وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فالكون حلقات متشابكة مترابطة ومتراكبة فقد يخطو الإنسان خطوة ناحية الشر أو الخير فتتحدد على أساسها مصائر كثير من الناس

وانطلاقاً من هذا الانسجام يمكن القول أن الإنسان قدر له أن يختار بحريته ما يشاء من الأعمال ، ثم إن هذه الأعمال التى اختارها ترتب عليها ما قدر له من الجنة أو النار ، أى أنه قدر له أن يختار بارادته وحرية أموراً ترتب عليها ما قدر له ، وبذلك تصبح هذه المعانى والمفاهيم الثلاثة سليمة لا غبار عليها ، وبذلك يكون قضاء الله وقدره قد أحاطا بالإنسان قبل أن يختار وبعد أن اختار دون ظلم أو إجبار .

١٠ - وليس حتماً بأن يحدث الانسجام بين القدرين ولا أن تولد المسببات بمجرد الإتيان بالأسباب فمشيئة الله لا تخضع لقانون ثابت ، فقد يأتى الله بأقدار إجبارية لا تنسجم إطلاقاً مع الأقدار الاختيارية لكى يبرهن على أن المسببات من صنع يديه

وليست وليدة الأسباب كما يتوهم البعض .

١١ - إن الابتلاء يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ، وإن الناس ثلاثة أصناف صنف يفسده انقلاب حاله من العسر إلى اليسر ، وصنف يفسده انقلاب حاله من اليسر إلى العسر ، وصنف لا يتزعزع إيمانهم إذا انقلبوا من حال إلى حال ، وقد يتلى العبد في آخر عمره فيختم عمله بما كان منه ويتحدد مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .

١٢ - إن العمل مطلوب ولكنه ليس إلا وسيلة لطلب الرزق ، أما الرزق الحقيقي فهو الله جل شأنه ومشيتته لا تخضع للأسباب والمسببات فهو ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ومن الواجب على الإنسان ألا يقعد عن طلب الرزق ، فطالب الرزق لا بد له من بذل الجهد والعمل والأخذ بالأسباب ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأن يتوكل على الله بقلبه ويسأله الرزق والعطاء .

١٣ - الزواج من الأمور التي للإنسان اختيار فيها بجانب مشيئة الله ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، وإذا قدر الله لعبده أن يتزوج امرأة بعينها أحدث إنسجماً بين اختيار عبده وإرادته جل شأنه لهذا الزواج أن يحدث ، فكان ما اختاره العبد بحريته هو عين ما قدره الله له .

١٤ - إننا نخرج من هذا الموضوع المتراعى الأطراف بكل ما فيه من أسرار وحكم بالغة إلى حقائق ثابتة وهي أن الله عز وجل تعالى عن الظلم علواً كبيراً فلا يظلم أحداً من خلقه ، وأن إرادته نافذة ومهيمنة على هذا الكون بأكمله ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأن تحركات الإنسان وسكناته هي في مقدور الله عز وجل ، وأن الإنسان رغم حريته الكاملة في الاختيار ورفع الظلم عنه إلا أنه لا يخرج عما قدره الله له .

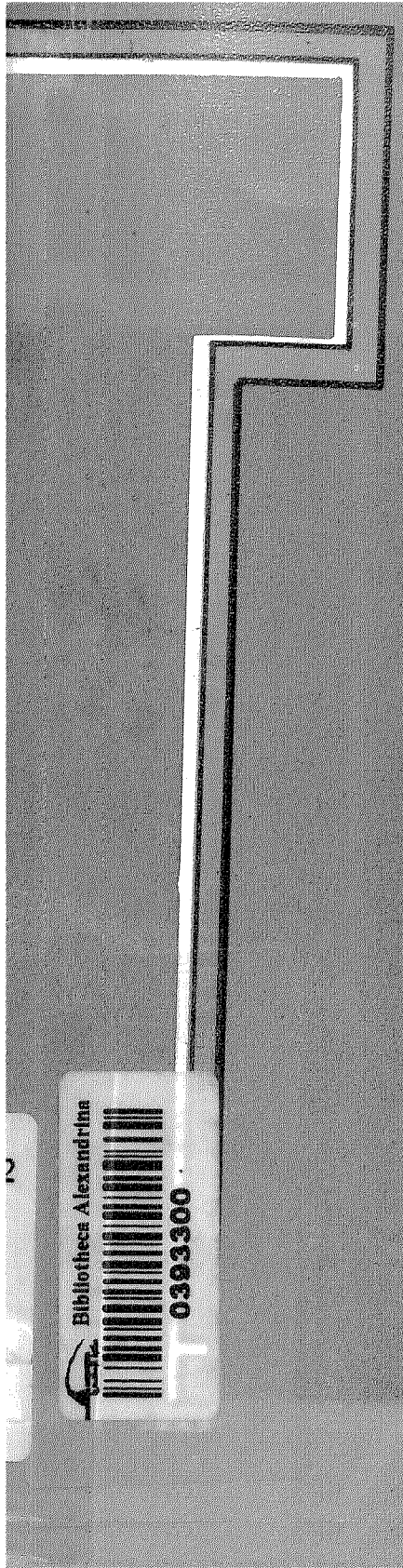
تم بحمد الله

محتويات الكتاب

البيان	رقم الصفحة
مقدمة المؤلف :	٨ - ١٢
الباب الأول :	١٣ - ٤٠
المبحث الأول : تحليل لمعانى الآيات المتشابهات :	١٥
المبحث الثاني : الحكمة فى حدوث الشر :	١٧
المبحث الثالث : متى يأذن الله للشر أن يحدث ؟ :	٢٤
المبحث الرابع : موقف الجانى والمجنى عليه من قضية الجبر والاختيار :	٣٠
المبحث الخامس : مصادر الخير :	٣٣
المبحث السادس : طبيعة النفس البشرية :	٣٥
المبحث السابع : تأثير البيئة على سلوك الإنسان :	٣٧
المبحث الثامن : لماذا الدنيا ؟ :	٣٩
المبحث التاسع : الإنسان مخير والكون مسير فى عبادتهما لله :	٤٠
الباب الثانى :	٤١ - ٥٩
المبحث الأول : ما جدوى العمل الصالح والدعاء مع المقلور ؟ :	٤٣
المبحث الثانى : فى قوله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ :	٤٥
المبحث الثالث : قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن :	٤٨
المبحث الرابع : الله مقلب القلوب وعدالته للإنسانية :	٤٩
المبحث الخامس : مقومات الهداية :	٥٢
المبحث السادس : أهل الجنة يكرمون وأهل النار لا يكرمون ولا يظلمون :	٥٥
الباب الثالث :	٦١ - ٩٨
الفصل الأول : القدر الاختيارى والقدر الإجبارى :	٦٣

	الفصل الثاني : معصية آدم عليه السلام (على ضوء قضية الجبر والاختيار) :	٦٩
	الفصل الثالث : الجبر والاختيار :	٨٤
	الباب الرابع : :	٩٩ - ١٣٢
	تفسير نماذج من القرآن والسنة :	٩٩
	الباب الخامس :	١٣٣ - ١٥٨
	الفصل الأول : الإبتلاء :	١٣٥
	الفصل الثاني : الرزق (على ضوء قضية الجبر والاختيار) :	١٤٣
	الفصل الثالث : الزواج (على ضوء قضية الجبر والاختيار) :	١٥١
	سلوك المسلم المؤمن (على ضوء قضية الجبر والاختيار) :	١٥٧
	كلمة حق :	١٥٨
	ملخص ماورد في هذا البحث :	١٥٩ - ١٦٢

رقم الإيداع : ١٨٠٦ / ١٩٩١
الترقيم الدولي : 4 - 1113 - 00 - 977



مر النسخة ٤ جنيحات